الغائبُ في الدراسات البلاغية
بيْن الواقع والمأمول

أ . د. محمد أبو مُوسى
الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف

بِسْمِ الله الرحمن الرحيم

أحمدُ اللهَ وأستعِينُهُ وأسْتهدِيهِ، وأُصلّي وَأسلّمُ علَى صَفوةِ خلقِه صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليْه. وأزدلفُ إليْه ﷾ بالمشاركةِ فِي ندوةٍ تبحثُ فِي الصِّراطِ المستقيمِ الّذي يصلنا ببيانِ العربيةِ الشريفةِ، وهي شريفةٌ؛ لأن الله ﷾ هو الّذي شرّفها لما بلّغَ بها وحيَهُ إلى كلِّ خلقِهِ من العربِ وغير الْعربِ، ومن الإنسِ والجن، ولمْ يخاطبْ الحَقُ ﷾ الثقلينِ إلاَّ بهذه العربيةِ، ثُمَّ هي شريفةٌ لأنَّ الله ﷾ جعل بيانها العالي حجةَ خاتم خلقِه ﷺ وناهيك عن أن يكونَ هذا البيانُ بُرهانَ نبوة خاتم الأنبياء ﷺ، وهي شريفةٌ لأنها لسانُ اللهِ ﷿ يومَ القيامةِ، ثمّ هي شريفةٌ لأنها لسان أهل الجنّةِ، ولا يتقاعسُ عنْ خدمةِ هذا الشرف كلّه إلاَّ مخذُول، ونعوذُ باللهِ من الْخذلانِ، ونرغبُ إليهِ أن يُوفقنا لما يُحبه ويرضاه.

وبعد، فقد صَادف موضوع هذه الندوة قبولاً واستحسانا من نفسي؛ لأني منذ شُغلتُ بهذا العلمِ وأن أفتشُ في عقول الّذين وضعُوه؛ لأعرف كيفَ وضعوه؟ وفي عقولِ الذين نمّوه وأمدّوه وأخصبُوه؛ لأعرفَ كيفَ أمدُّوه ونموه، وأخصبوه؟ وكنتُ وما زلت شديد العناية بأن أبحثَ عن العلمِ وعن علمِ صِناعةِ العلمِ، وكنتُ أحدّثُ طلابي فِي هذين، وكنت وما

زلتُ أشعرُ أن علم العلمِ صعبٌ، وأصعبُ منه علم صِناعة العلمِ، والنّاظرُ المْدقّقُ فِي كتب علمائنا يرَى أنّهم كما شرحوا لنا العلمَ شرحوا لنا أيضًا -ولكنْ بطريقة أغمض- علم صِناعة العلمِ، وظَنِّي أنّ سَاعةً من نهارٍ مع طلاب العلمِ فِي علمِ صِناعةِ العلمِ أجدى عليْهم من سحابة يومٍ فِي تحصِيلِ العلمِ.

وكمْ أتمنّى أن أرى فِي أقسامِ الدراسات العليا فِي جامعاتنا علما اسمه علم إنتاج المعرفة، أو صِناعة المعرفة يقُوم على بيان طرائق العلماء الّذين أنتجوا المعرفة، وكيف بَنى من بنى، وهذا العلم المسكوتُ عنه ظاهرٌ جدًا فِي الكتب التي أَسَّست أو شاركت فِي تأسيس العلوم، وقد أفصح علماؤنا عن طرائقهم، ولكن بلغة هادئة جدًا ومتواضعة جدًا.

يستطيع النّحويُّ البارع أن يخرجَ لنا كتاباً كريماً عنوانه منهج النحاةِ فِي استخراج مسائلِ النّحو.

ويستطيعُ البلاغيّ البارعُ أن يخرجَ لنا كتاباً عنوانُه منهجُ علماءِ البلاغةِ فِي استخراجِ علومِ البلاغةِ.

وهكذا قلْ فِي علْمِ الفقه، وعلم الأصول، وغيرها من العلومِ؛ لأنَّ الأجيالَ فِي حاجةٍ إلى أنْ تتعلّم صِناعةَ المعرفةَ حتّى لا تعيشَ عالةً علَى علومِ صُناع المعرفةِ، وحتى تطمح أنْ تكونَ لنا مُشاركةٌ فِي صِناعةِ العلمِ، وحتّى

تـأنفَ أن تَكـونَ مـستهلِكة للمعـارف، وغـير صَـانعين لهـا، ونحـنُ فِي أشـدِّ الْحاجةِ إلى هذه الأنفةِ.

وممَّـا لا أشـكُّ فيـه، ولا يـشُكُّ فِيـهِ غـيرِي، هـو أنَّ العلـومَ لا تتحـركُ وحدها، ولا تزدهرُ وحدها، ولا تتقدّمُ وحدها، ولا تتـأخّرُ وحـدها، وإنـما كلّ هذه فِي الحقيقةِ أوصَافٌ لعلمائهـا، والقـائمين عليهـا، وأننـا نظلـم العلـمَ حين نقُول إنه جمد؛ لأنّ العلمَ لم يجمُد، وإنما الذي جمُدَ هم أهلُـهُ، وحـاملوه، وحين نقول ازدهرت البلاغةُ وتطورتْ وتقدمتْ، فهـذا لـيسَ وصـفًا نابعًـا منْ علمِ البلاغةِ، ، وإنما هو وصفٌ منحه علماءُ البلاغة لِعلـم البلاغـةِ، فـإذا كان واقعُ الدرسِ البلاغيّ غير مأمولٍ، فليس للبلاغـة ذنـبٌ في هـذا الواقـعِ غـيرِ المـأمولِ، ونحـنُ المـسؤولون عـن هـذا، وقـلْ مثـلَ هـذا في كـل علومنـا الأساسية من نحوٍ، وفقهٍ، وعقائـد.... إلى آخره، ومـن الواجـبِ أن نقـفَ لنبيّن بعضَ الحقائقَ، وأولها طبيعةُ علوم البلاغةِ، والجهة التي انتزعت منهـا واستخرجتْ منها، وهلْ يمكنُ أن نحذف منها مـسألةً ؟ أو أنْ نزيـدَ عليْهـا مسألةً منْ خارج ما استخرجتْ منه ؟ وهل يُمكنُ أن نزيدَ عليْها مسألةً مـن طبيعةِ ما استخرجتْ منه؟

والظاهرُ البيّن أن مادة علوم البلاغة من ألفها إلى يائها مستخرجةٌ من طرائق العربيةِ في الإبانةِ عن المعانِي، فالتقديم والتأخير في البلاغة واقعان في البيان كله، ومباحث التعريف والتنكير من البلاغةِ مباحثُ ضرورية؛ لأن التعريف والتنكير واقعان في الكلام كلّهِ، والحقيقة والمجاز والطباق والمقابلة والفصل والوصل والقصر والخبر والإنشاء كلّ ذلك لم يولد في علم البلاغةِ، وإنما هو من طرائقُ العربية في الإبانةِ، كان وما يزالُ، وسيبقى ما بقي اللسان، وما بقيت لغتنا في أفواهِنا وأيّ بحثٍ في البلاغةِ ليس مستعملاً فِي ألسنتنا فالواجبُ حذفه؛ لأننا لا ندرسُ إلا ما يفيد، وما لا وجود له في ألسنتنا هو زائد غير مفيد، ولن تجد من ذلك شيئًا، وهذا أمرٌ مسلمٌ من الكافة، ويؤسس عليه ضرورة العناية الفائقة بكلّ مسألةٍ بلاغية، لأنه لا يعرفُ دلالات تراكيب العربيةِ إلا من فهم طرائقها في الإبانةِ عن المعاني، وهذا هو الذي جعل الزمخشريّ الذي وصفه ابن المنير بأنّه خِرّيت أساليب يعني عرّافٌ بطرقِ العربية في الإبانة؛ لأنّ الْخريت هو الماهر البارع في معرفة طرق الصحراء، هذا العراف البارعُ قال: لا غنى للمفسر عن علمي المعاني والبيان، وإن مضَغَ اللغاتِ بقوةِ شِدْقيْهِ، أراد العلمَ بِمفردات اللغةِ. ومادام الأمر كذلك، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يقترحَ حذفَ شيءٍ من مكونات هذا العلم.

والسؤال الثاني: هل يجوز لنا أن نزيد عليْه من خارج ما انتزع منه؟

والجواب أن كل زيادةٍ ليستْ من بابِ طرائقِ العربيةِ في الإبانةِ عن المعانِي فضلٌ زائدٌ يُثقل العلمِ، ولا يفيده، أما الزيادةُ عليْهِ من طرائق العربيةِ فهذا أمرٌ واجبٌ إذا أمكنَ، وقد حاول ابن أبي الإصبع (٥٨٥- ٦٥٤هـ) أن يستخرج من البيان فنونًا بلاغية لم يستخرجها من سبقُوه، وقال عَنّ لِي استنباط أبواب تزيد بها الفوائد، ويكثر بها الإمتاع نسجًا على منوال من تقدمني، واتباعا لسنةِ من سبقني (١).

وسواءٌ وافقت ابن أبي الإصبع فيما استخرجه أو خالفته فالذي لا يختلف عليهِ أحدٌ أن طريقه هذا هو الطريقُ الذي تنمو به المعرفةُ، ومحاولته هي محاولةُ العلماء الذين يضعون بأيديهم لبنات يرتفع بها بناء العلم.

ولابن الأثير (٥٥٨ -: ٦٣٧هـ) كلامٌ كهذا فقد ذكر أنه استخرج من الكتاب العزيز فنونا بلاغية لم يفطن إليها أحدٌ، وأنّ الذي استخرجه يُعدّ شطر هذا العلم، قال رحمه الله: " وكنت عثرتُ على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم لم أجد أحدًا ممن تقدمني تعرّضَ لذكر شيءٍ منها،

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع، تحقيق خفني محمد شرف، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة – ص/ ٩٤ .

وهي إذا عُدّتْ كانت في هذا العلم بمقدار شطرِهِ، وإذا نظرَ إلى فوائدها، وجدت محتويةً عليْه بأسره.

ثُم يقول: وهداني لابتداعِ أشياءَ لم تكن من قبلي مبتدعةٌ، ومنحني درجة الاجتهاد، التي لا تكون أقوالها تابعةً، وإنما هي مُتّبَعَةٌ ". انتهى كلامه رحمه الله (١) .

وأكرّر ما قلته من أنك قد توافق ابن الأثير على ما استخرجه أو تخالفه، ولكنك تقرّ له بأن هذا هو طريق العلماء المجتهدين، وطريق بناة المعرفة، وهم الذين لا يعرفُ العلم الذين هم رجالُه شيئًا من السُّكون والجمودِ الذي نتحدثُ عنه نحنُ، ولم يختلفوا في كيف يجددون؛ لأنّ كلّ هذا يكون طبيعيا جدًا مع اجتهادِ أهل العلمِ، ومحاولة كلّ واحدٍ منهم أن يُبلّغه الله ﷻ في علمه درجات الاجتهاد، وأن يضع فِي علمه لبنةً.

قلت إنَّ مسائل علم البلاغة مستخرجةٌ من استقراء كلام العرب، وطرائقهم في الإبانةِ عن معانيهم، وهذا يعني أنه علمٌ لا غنى للعربيةِ عنه، وأقولُ إنَّ مما يوجبُ الحذرَ والاحتياطَ في التعامل مع البلاغةِ أنها من أبرز علوم القرآن، وأنه لا غنى للمفسر عنها، وأنّ الزمخشريّ وقع على علم عبد

---

(١) المثل السائر، لابن الأثير، تحقيق محمد محيي عبد الحميد، بيروت، ج١ ص ٢٤.

القاهرِ أولاً ثُمّ صنع تفسيره ثانيًا، وكان علم عبد القاهر هو الذي أعانه على أن يحدث أثرًا كبيرًا فِي خط سير كتب التفسير؛ لأنّه لم يسبق الزمخشريّ كتاب تفسيرٍ استخرج أسرار بلاغةِ القرآن ما استخرج الزمخشريّ، وكلّ كتب التفسيرِ التي جاءت بعده كانت في تحليل بلاغةِ القرآن عيالاً عليه ولا يزالُ هو مفتاح بلاغة الكتاب العزيز لمن يعالجون التفسير من أهل زماننا.

وكلمة علوم القرآن تعني العلوم التي أعدت لتكون عونا على فهم القرآن، وعلم المعاني الذي هو أصلُ علوم البلاغةِ الثلاثة نشأ علمًا قرآنيا تحت عنوان دلائل الإعجاز، وما يزالُ إلى الآن مادة علم المعانِي تقرأ تحتَ هذا العنوان في كتاب عبد القاهر، وقد نقلها العلماء إلى علم المعاني بعد عبدِالقاهر بِقرنيْن تَقريبًا.

وكلمة علم المعاني هي ذاتها كلمة معاني النحو التي أقام عبدُ القاهرِ عليها النظم وجعل البلاغة والإعجاز وكل ما به يفضلُ كلامٌ كلامًا محصُورًا في توخي هذه المعاني على وفق الأغراضِ والمقاصدِ.

وقد تعرضت البلاغةُ مع كلّ علومنا إلى هجمةٍ شرسَةٍ منذ أكثر من مائة عام من يوم أن دخلت علينا ثقافة المستعمر، وحاولت أن تَغلِبَ، وأن تُغيّبَ علومنا، وخصوصًا العلوم التي هي مفاتيح فهم الكتاب والسنة،

وهي كل علوم العربيةِ؛ لأن كل فروع علومنا وأصولها أصلها اللغةُ التي نزل بها الكتابُ وتكلم بها النبي ﷺ، ولا شكَ أن وضع بدائلَ لهذه العلوم لا يمكنُ أن تكون مفاتح فهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ .

وقد كتب الأستاذ محمود شاكر كلمة جليلةً في كتابه مداخل إلى الإعجاز تحت عنوان "نفثة مصدور" تكلم فيها عن هذه الهجمة الشرسة التي تتعرضُ لها البلاغةُ، وبقية علوم العربية، ولا تزال عقابيل هذه الهجمة باقية يتولّى كبرها فينا فريقٌ ممن كرهوا ما أنزل الله، ويماشيهم فريقٌ من أهل الغفلةِ الذين عصبتْ عيونهم، ومنهم الصالحون، ولكنهم ماضون في الركب، ولا يدرون، ولا يدرون أنهم لا يدرون، وهؤلاء هم من الذين يتوجه إليهم الخطابُ الصادق المقنع، وهذا حقُّهم.

ومن الواجب أن نفرق بين واقعين للدرسِ البلاغي: واقعٌ نحن شركاءُ في صنعه، وواقع الدرسِ من حيثُ هو كما تمثله مصادره وتاريخه وجهود رجاله.

ومن الواجب أن يُعلم أن العلوم ليست هي التي تسد الفراغ، وتفي بالحاجة، وإنما الذي يسد الفراغ ويفي بالحاجة جهود علماء هذه العلوم ومدى قدرتهم على تحريكها واستثمارها واستنفارها أيضًا لأن العقول الحية

لا تستثمر العلوم فحسب، وإنما تستنفرها أيضًا لتخرج مضامينها المختبئة في مضابئها، وقد نبه ابن مسعود ﷺ إلى هذا، وإلى ما هو أجل منه في قوله: "من أراد العلم فليثور القرآن" قال: فليثور، يعني: يجعل القرآن يثُور، وهذا كلام عجيبٌ، وقد شرحه علماء علوم القرآن، وقالوا أراد فليستخرج من القرآن ويستنبط، وعلى قياس هذا لك أن تقول من أراد علم البلاغة فليثور البلاغة يعنِي يستخرج منها ويستنبط، أما أن تحفظها وتدع المخبوء فيها ساكنا، فليس هذا من التعامل الراشد مع العلم، وإذا كان سلفنا الصالح علمنا أن علم الحلال والحرام يُستنفر ليخرج لنا خباياها، فكيف لا يستنفر علم محاسن البيان مع أنَّ المحاسن تكره أن تُغيّبَ، وقديمًا قالوا: "وجوه زهاها الحسن أن تتنقبا" وإنما سكن المحاسن إلى المغيب إذا لم تجد من يستامها، ولا من تعرف عيناه كرامها.

البلاغة وعلوم الإعجاز

وليس من الممكن أن أضع صُورة لواقع الدرس البلاغي الذي تصوره مراجعه وجهود رجاله في هذه الكلمة المختصرة، وسأكتفي بالإشارة الموجزة إلى بعض مواطن الخصب الظاهر في تاريخ هذا العلم، وأظهر ذلك محاولتان لِعالمين عاشا في زمن واحد قبل عبد القاهر وشغلا بفرع واحد من فروع هذا العلم، وهو بلاغة الإعجاز.

أما أحدهما فهو حمد بن إبراهيم بن سليمان الخطابي البستي وهو من أكابر علماء السنة والذي أدهشني منه أنه في رسالة صغيرة في الإعجاز حاول أن يضع أساس علم جديد سماه "علم البلاغة الخاص بالقرآن" وأراد بذلك البلاغة التي توجد في القرآن، ولا توجد في غيره، وهذه محاولة من أعظم المحاولات وأشقها، وكانت هذه المحاولة بِمثابة رد – وإن لم يقصد الخطابي– على محاولة علي بن عيس الرماني الذي كان في زمانه أيضًا وكتب رسالته "النكت في إعجاز القرآن" وذكر أن وجوه الإعجاز: التشبيه والاستعارة والتلاؤم والبيان إلى آخره، وكلها تقع في كلام الناس كما تقع في كلام الله ﷾، يعني ذكر الرمانيّ أن بلاغة الإعجاز تبدأ من نقطة يلتقِي فيها البيان الإنسانيّ بكلام الله ﷾ ثم يرتقِي كلام الله ﷾ حتّى يقطع الإطماع، ويقهر القوى والقدر، وهذا هو الذي عليه جمهور العلماء، ولكنَّ الخطابيّ انتحى نحوًا آخر، وأخذ يبحثُ في الكتاب العزيز عن الذي فيه، والذي لا يمكن أن يكون من النفس الإنسانية، ولن يقع على شيءٍ من هذا الذي يريده إلاّ إذا عاش زمانا يتفقد كلام الناسِ ويتعرف على طبعه وسمته ومكوناته، وأنه عصارة هذه النفس الإنسانية ، وإن أحوالها ونزواتها وشيمها وبرها وفجورها وظلمها وعدلها كلُّ ذلك لابد أن يكون له وجودٌ، وله ظلال وله انعكاسات في كل ما يصدر عنها، وانّ بيانها هو المرآةُ التي لا

تستطيع هذه النفسُ أن تخفي نفسها منها، فالفتور والضعفُ والانقطاعُ والاستقامةُ والانحرافُ والعلو والهبوط كلّ ذلك ضربة لازب في كلامها فلا تبلغ مرتبة عالية إلا لتنزل بعدها، ولن تجود وتبلغ الغاية إلا وتراها قد هبطت هبوطا ظاهرًا حتى إنهم قالوا إن قول امرئ القيس: " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"، لما بلغ الغاية فيه ووقف واستوقف وبكى واستبكى ما لبث أن فتر في النصف الثاني من البيت، يعني أنه سَبق في النصف الأول من البيت، وسُبق في النصف الثاني منه، وهكذا لا يخلو كلام آدمي من فترةٍ، وما من كلامٍ إلا قيل فيه قال كذا ولو قال كذا لكان أحسن، وليس في كلام الله ﷻ شيءٌ من هذا، ولو كان صادرًا عن نفس إنسانية لكان فيه ما في هذه النفس لا محالة، وبمثل هذا التفقد عالج الخطابي الأصول الأولى لما سماه البلاغة الخاصة بالقرآن .

ولا شكّ أنّ سمات البيان الإنسانيّ التي كان الخطابي بارعًا في استخلاصها من كلام الناس كانت بين عينيهِ، وكان يفتقدها في كلام الله ﷻ، وكل ما ذكره الخطابي من البلاغة الخاصة بالقرآن بيّن الخطابي افتقاده في كلام الناس، ويقولُ إنّ هذا لم يتيسّرْ لكلام آدميّ، وإنما يسره الله ﷻ بلطفه فِي كتابه؛

ليكون آيةَ نبيه ﷺ⁽¹⁾ . وهذا كلامٌ بالغُ الأهميةِ ووراءه بحثٌ وتنقيب وصبرٌ واستخراجٌ، ومن الواجب أن تكون هذه المحاولات تحت أعيننا في مجالسنا مع طلابنا؛ لأنها نموذج من نماذج سلوك صناع المعرفة، ولا شكّ أن التحصيل مهمٌ ودربه طويلٌ ولكن التفكير أيضًا مهمٌ ودربه أطولُ، وما أعظم أن يجتمعا معا، والتفكير من غير تحصيلٍ خبط في هواء، والتحصيل من غير تفكيرٍ حطب في ليلٍ، وما أعظم أن يكون هناك علمٌ يعلوه ويضبطه سلطان العقل، والعقل يتفقدُ المعرفةَ وينقدها، ولو توفر لنا هذا لوصلنا في كل علمٍ إلى واقعٍ مأمولٍ.

التجربة الثانية تجربة الباقلاني:

الباقلانيّ يرينا العالم الذي يكون عقله أكبرَ من علمه، وهذا القدر الفائض من العقل عن العلم هو الذي يطور العلم، ويجدده، ثم يصنع علما جديدًا .

وممّا يروعك به الباقلانيّ وإن خالفته هو أنه يفاجئُ الكلّ بنفي أن يكون علم البلاغةِ أو البديع كما كان يسمى في زمانه له دخل في الإعجاز، وقد

---

(١) يراجع كتاب البيان في إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد الخطابي ص٢٦ -(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) دار المعارف مصر

قلت إن الخطابيّ رأى أن الإعجاز يكون ببلاغة خاصةٍ بالقرآن، ولم يتعرض الخطابيّ للبديع، وهذا بخلاف الباقلاني، ولك أن تخالف الباقلاني أو توافقه، ولكنّك لا تستطيع أن تنكر ثقته في علمه وعقله، وأنه يأبى إلاّ أن يكونَ إمام نفسِهِ، ولمَّا أقدم على إزاحةِ البديعِ من باب الإعجاز كان لابد أن يملأ الفراغَ الذي خلفه غياب البديع، ولم يشر إلى البلاغة الخاصة بالقرآن التي ذكرها الخطابيّ، ولم يذكر شيئًا مما ذكره، وإن كان طريقه هو طريق الخطابيّ لأنّ كلاًّ منهما وجد الإعجاز في غير الذي ذكره الناسُ من فنون البلاغةِ، ولم يرجع واحدٌ منهما إلى كتابٍ مكتوبٍ في علم الإعجاز يعوّل عليه في كلامٍ يقُولُهُ، وإنما رجع كلٌّ منهما إلى البيان، لا غير سواء بيان الناسِ من الشعر أو النثرِ أو بيان الكتاب العزيز، والذي اهتدى إليه الخطابي من تفقده للبيان هو أن النفس الإنسانية أعجزها أن تجمع بين أشياءَ وجدها مجتمعةً في الكتاب العزيز، وذلك كالعذوبةِ التي هي نتاج السهولةِ والجزالةِ التي هي نتاجُ الوعورة، وهذه أشياءُ كالمتضادة لا تجتمع في كلام النّاسِ، وقد يسّرها الله ﷻ لكلامه.

والباقلانيّ لم يذكر هذا وإنما كان يبحثُ في الكتابِ عن عز الألوهية وسلطان الربوبية، وهذا العزّ وهذا السلطان لا يقعان في غير كلام اللهِ

العزيز، ويمكنك أن تفسر عز الألوهية وسلطان الربوبية في كلام الباقلاني بالكمالات المطلقة التي بني عليها الكتاب كلُّهُ.

ويظهر عز الألوهية ظهورًا واضحًا في آيات الخلق كما في قوله ﷻ: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: ٩٦).

وكما في قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ فصلت: ١١. وغير ذلك ممّا لا يكون إلاَّ من المعبود بالحق ﷻ ويجري أيضًا عز الألوهيةِ فِي كل آيات الكتاب، وما يحكيه ربنا من كلام خلقهِ كما جاء في كلام سليمان ﷵ لملكة سبأ: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ النمل: ٣٠ – ٣١.

يقول الباقلاني أي خاطر يتشوف لأن يقُول: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا حتّى فيما حكاه ربنا ﷻ من كلام الذين ضلّوا من مثل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٣.

وقوله ﷻ: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ الإسراء: ٩٠ – ٩١.

كلّ ذلك جرى فيه عِزُّ الربوبيةِ، فعجز الناسُ عن أن يأتوا بمثلِهِ، وحيثما كان الإعجازُ فثم عِزُّ الألوهِيّةِ.

وقد وضع الباقلاني أصولاً في بلاغة الإعجاز أكثر مما وضع الخطابيّ في البلاغة الخاصة بالقرآن، ولم يرجع الباقلاني وهو يزاول هذه المهمة العالية إلى كتاب يتكلم في البلاغةِ أو في الإعجازِ، وإنما رجع إلى شيءٍ واحد هو الكلام الصادر عن أهل الطبع، ولم يشأْ لطالبِ هذا العلمِ أن يرجعَ إلى شيءٍ إلا إلى هذا الكلامِ الصادر عن أهل الطبعِ، فليس لك سبيلٌ إلى معرفة الفرقِ بين كلام الله ﷻ وكلام الناس إلا أن تعكف على تدبر كلام الله ﷻ وكلام الناس، وليس لك سبيلٌ إلى أن تستخرج أصول البلاغةِ المعجزة في الكتاب العزيز إلا التدبر في الكتاب العزيز؛ لأن تفقد كلام الله تعالى، وكلام الناسِ هو السبيلُ الوحيدُ لتكوين الذائقة البيانية التي لا بدّ منها للخوض في مسائل البيان، وهذا هو المنهجُ الذي غاب عنا.

الباقلاني يقول: لا تتزوّدوا في رحلة البحث عن حجة النبي ﷺ بكلام العلماء الذين تكلموا في هذا، ولكن تزودوا بطول الملابسة والملازمةِ والمراجعة والتدبر لكلامه ﷺ ثُم بطول المراجعة والملازمة والتدبر لما أنزل عليه ﷺ لتدركوا الحقيقة التي هي كفلق الصبح وهي البعد الهائل بين ما تكلم به ﷺ وما أنزله الله عليه.

وهذا هو طريق الإقناع والطريق العملي لمعرفة طبقات البيان، وكأن الباقلاني يقول لنا ظلمتم أنفسكم، وظلمتم الأجيال التي بين أيديكم؛ لأنّكم حاولتم أن تعلموا هذه العربية بواسطة علومها، فاستقبلتم بوجوهكم هذه العلوم، وجعلتم العربية نفسها في المرتبة الثانية، ولن تسكن علوم العربية في قلب لم تسكن فيه العربية، أسكنوا العربية أولا في نفوسكم، ونفوس طلابكم ثمّ ادخلوا عليها علومها، وستسكن هذه العلوم لا محالة حيثُ تسكن أمّها، وقد أكّد هذا المعنى ابن خلدون الذي جاء بعد الباقلاني بقرون، قال إن الملكة اللسانية لا تنشأُ بمدارسة علوم العربية، وإنما تنشأُ فقط بمدارسة البيان العالي، وتفقده ومزاولته ومراجعته(١).

---

(١) يراجع كتاب إعجاز القرآن للباقلاني- دار المعارف .

خطوة أساسية نحو الواقع المأمول:

ومن المفيد الإشارة إلى أنّ مصادرنا الأدبية الأولى كانت تكونُ مختارات من حرّ الشعر وحر البيان في الأغراض المختلفة مثل العقد الفريد، وزهر الآداب، وغيرها، وهي كتب أسكنت بيان العربية في القلوب في زمانها، وقلما تجد فيها دراسة علمية مطولة، وكل هذا يوجب مراجعة المناهج لأنه من غير المفهوم أن تكون هناك مادة النصوص الأدبية في علم الأدب وحده، ولابد أن تكون هناك نصوص أدبية عالية في كل علم من علوم العربية وأن تضع لذلك منهجه وطرائقه وهي خطوة مهمة نحو الواقع المأمول.

وهذه قضية تتصل بجوهر الندوة، ويحسن الوقوف عندها لأبين أمرين:

الأمر الأول: أن ما في الشعر من ثقافة وعلم وتربية هو الذي أعدّ جيل المبعث لأن هذا الجيل لم يكن عنده ولا عند من سبقوه علم إلا الشعر وهذا الشعر هو الذي أعده لتلقي رسالة الإسلام وحملها إلى الأمم فقد بلغهم رسول الله ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى، وبلغوا هم الأمم فكانوا رسل رسول الله ﷺ، وذكر كثيرٌ من أهل العلم أنه جيلٌ أعد لهذه الرسالة، والمقصود من هذا هو

أن الشعر الذي هو سبيلنا إلى تسكين اللغة في نفس الجيل لن تكون مهمته فقط هو تحصيل اللغة، وإنما سيكون مع ذلك فاتحا لهوات وشهوات طلابنا إلى العلم ومهيئا نفوسهم لضرب رفيع من التلقي، وكان الجاحظ يوصي بحفظ كلام العرب والأعراب؛ لأنّه به تسخو النفوس والقلوب ويبعث فيها ينابيع البيان والحكمة وفصل الخطاب .

والأمر الثاني: هو أنني لم اعرف عالما في البلاغة ولا في النحو برع وأخذ عنه الناسُ إلا والشعر يكاد يكون كله تحت لسانه حتى إنك لترى النحو يسبح في محيط من الشعر كالنحو الذي نقرؤه في كتابات أبي علي أو في كتابات أبي الفتح الذي اخذ عنه حفظ الشعر، وقد كان أبو عليّ الفارسي يربط القاعدة النحوية بمعاني الشعر، وفتح تلميذه أبو الفتح من ذلك بابا سماه مشابهة معاني الإعراب معاني الشعر وفيه ترى القاعدة النحوية ماثلة في بيت من أبيات الصبوة كقول أبي عليّ في مثل: لقيني ولقيت زيدا، إنه يجوز لك رفع زيد، ويكون فاعلا لـ (لقيني)، ويجوز لك نصبه، يكون مفعولا للفعل الثاني (لقيت) فإذا أعملت الأول كنت كمن يقول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ❊❊❊ ما الحب إلا للحبيب الأول

وإذا أعملت الثاني كنت كمن يقول:

عَلى أنَّها تَعْفُو الْكُلُومُ وَإنَّما *** نُوَكَّلُ بِالأدْنَى وَإنْ جَلَّ مَا يَمْضِي(١)

وهكذا ترى النحو يمتزج بالشعر، وقارن الاستشهاد بمثل هذا وإحضار القاعدة به وبقول ابن مالك في باب التنازع من ألفيته:

والثانى أولى عند أهل البصره *** واختار عكسا غيرهم ذا أسره

والشعر الذي كان قبل الإسلام علم قوم لا علم لهم سواه صار بعد الإسلامِ رأس كل علم من علومنا يستشهد به علماء الفقه وعلماء العقائد وعلماء التفسير والحديث وعلماء اللغة وبمقدار بعده يكون الضعف والشحوب في كل هذه العلوم ووظيفة علم البلاغة مؤسسة على قاعدة وثيقة الصلة بالشعر وبالقدرة على تذوقه وذلك لأن عبد القاهر مؤسس العلم يذكر في كثير مما يكتب أن علم البلاغة ليس هو الذي يهديك إلى معرفة الحَسَنِ والأحسَنِ، وإنما هو الذي يعينك على معرفة لماذا كان الحسن حسنا ؟ ولماذا كان الأحسنُ أحسن؟ أما معرفة الحسن والأحسن فليس لك سبيلٌ إليها إلا بذائقتك البيانية يعني أن فضل الكلام ورتبة الكلام لا تدرك إلا بالذوق، وهذا الذوق لا سبيل إلى تكوينه إلا بطول النظر في الشعر والنثر، ومزاولة التدبر في حر الكلام، وكلام عبد القاهر صريحٌ في هذا، ويجعله غالبًا مقدمة

---

(١) يراجع كتاب الخصائص لا بن جني.

لكلّ بابٍ كما تراه في باب التقديم، يقول في أوله: "ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيءٌ، وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان "(١).

ومعنى هذا النصّ أن الهادي إلى موضع الحسن ليس هو علمُ البلاغة وإنما حسُّك وذوقك وطبعك، وأنك تستقبلُ الشّعرَ بذائقتك وحدها، وليس بالمدونة البلاغية، فإذا راقك وعظم عندك تقدمت المدونة البلاغية لا لتبحثَ انّه راقك، وإنّما لتبحث عن السبب الذي به راقك، وعظم عندك، فتجد سبب ذلك أمرًا راجعًا إلى مفردة من مفرداتها، يعني لفظًا قدم أو حذف، أو جاء على صيغة الفعل أو الاسم إلى آخره.

وإهمالنا لهذا من أهم أسبابِ ما نشكو منه، والعلم بريءٌ، وإنما نحنُ الذين لم نطلب البلاغةَ من الجهةِ التي تطلب منها، وكأنّنا نقرأُ البلاغة من قفاها.

وأهمّ قضية في كتاب"دلائل الإعجاز" هي مناقشة عبد القاهر للذين خالفوه في مرجع المزية، وذهبوا إلى أن المزية ترجعُ إلى اللفظِ من حيثُ هو لفظٌ، ومع صرف النظر عن تفاصيل هذا الخلاف، فإن عبد القاهر ومن

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر قراءة محمود شاكر، ط المدني – الخانجي – القاهرة، ص١٠٦.

يخالفهم يقرون بأنّ هنا مزية، وأنَّ الخلاف في بيان مرجعها يعني في تعليلها، وليس هناك خلاف في إدراكها؛ لأنّ الذي أدركها ليس علما يقع فيه خلافٌ، وإنما هو الطبعُ، وأنَّ البلاغةَ تأتي بعد هذه الخطوةِ، يعني أن البلاغةَ لا تفتح فمها إلا إذا أعطاها الطبع إشارةَ البَدءِ، وقال هنا حُسْنٌ، فابحثِي عنْ علتِه، وهذا واضحٌ، وخلاف هذا رؤية للبلاغة بِعيْنٍ حولاء.

وابن الأثير الذي يرى أنّ كتابه جامعٌ مانعٌ يقررُ هذه الحقيقة، ويجعلها فوق كتابه، أعني الدربة وطول التأمل والمراجعة لكلام أهل الطبع، وأنها الأبرُّ بكَ، وله كلمات جيدةٌ في هذا منها قوله: "وهما – يريد الدربة والإدمان– يريانك الخبر عيانا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكل جارحةٍ منك قلبا ولسانًا "(١).

وقد استحسنت هذه الكلمة لأمرين:

الأمر الأوّل: ذكر كلمة الإدمان؛ لأنها تعني طول زمن الدربة، وطول زمن المراجعةِ؛ لأن الذائقة البيانية شيءٌ نفيسٌ جدًا، ووصف عالٍ من أوصاف النفس الراقية، ومن يرد ذلك فلا بدَّ من دفع التكاليف، "ومن يَخْطُبِ الحسناءَ لم يُغْلِها المهر ".

---

(١) المثل السائر لابن الأثير: ١/ ٢٥.

الأمر الثاني: أنّ هناك فرقًا كبيرًا بين أن تحدّثَ بما حدّثَ به الناسُ عن الشعرِ، وتقول هذا جيدٌ لأنّ الناسَ قالوا هذا جيدٌ، وان تحدث بما وجدت أنت في الشعر، وبما أدركت أنت. فرقٌ بيْن جيدٍ أدركه غيرك، وشهدت أنت بما شهد، وجيدٍ وجدته أنت وذقته أنت وعاينته أنت، وهذا معنى قوله: "يريانك يعني الدربة والإدمان الخبر عيانا، ويجعلان عسرك من القولِ إمكانا" لأنَّ قولك سيصدر عن نفسك، وستصف نفسك، وسينطقك إستحسانك ويثير في نفسك المعنى الذي ستتكلّمُ بِه، ومعنى "أنك تجد كل جارحةٍ منك قلبًا ولسانا" أنك لابدّ أن تحاول في الدربةِ والإدمان أن تذوق الشعر بكل قدراتك وبلحمك ودمك وجوارحك حتى تصير هذه الجوارح كأنها قَلبٌ وجد هذا الشعر، ولسان ذاقه، وهذا جيدٌ. وفيه ريحٌ من قولِ أبي تمام يصف شعره:

كشفتُ قناعَ الشعرِ عن حرِّ وجههِ *** وَطَيَّرْتُه عَنْ وَكْرِهِ وهْوَ وَاقِعُ
بِغُرٍّ يراها من يراها بسمعهِ *** فيَدنو إِليها ذُو الحِجَى وهْوَ شاسِعُ
يودُّ وداداً أنَّ أعضاءَ جسمهِ *** إِذا أُنْشِدَتْ شَوْقاً إِليها مَسامَعُ

ولا يعمل في تربية الأجيالِ عاملٌ أفضلَ من الشعر المختار، ثم هو منسِيٌّ ومتروك، وهذا أهم أسباب ما نحن فيه.

وقبل أن أدع ما قصدتُ إليْهِ من الإشارات السريعةِ إلى واقع الدرسِ البلاغيّ الذي لم نصنعه نحنُ، وإنما صنعه سلفنا، وانه واقعٌ فيه ثَراءٌ كثيرٌ أنبّهُ إلى مسألةٍ مهمةٍ، ومسهوٍ عنها أيضًا، وهي أن كتب علمائنا مشحونة بإشاراتهم إلى أنهم لم يستوفوا كل مسألةٍ عرضُوا لها، وإنما تركوا أكثر ممَّا كتبوا، وأنَّ عليك أيها القارئُ أن تستخرج مما تركوه بمقدار ما يُتاح لك، وأنَّ الّذي أنجزوه هو الدلالة على الطريقة، والدلالة على كيفية الاستنباط، والاستخراج. لقد وضعوا العلامات، وعليك أنت أن تنجز، وأن تقطع المسافة التي تؤهلك قُدُراتُك لِقطعها.

يقُول الباقلاني: " فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا والسير بعد ذلك في التفصيل إليك وحصل ما أعطيناك من العلامة ثم النظر عليك"⁽¹⁾.

وهذا ومثله كثيرٌ، كنا وما نزال نقرؤه، ولا نقفُ عنده مع أنّ فيه معنى مهمًا جدًا، وهو أنَّ الباقلانيّ وهو أوسع من تكلم في الإعجاز يقول إن الذي كررته هو كلام مجملٌ وتفصيله مسؤوليتك أنت أيها القارئ، ويكرر هذا المعنى، ويقول إن الذي قلته ليس نظرا كافيا في العلم، وإنما هو بمثابة علامة وضعتها لك عند المواطن التي فيها علمٌ أما النظر في استخراج العلم فهذه

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف – القاهرة، ص: ٢٠٥.

مسؤوليتك أنت، وهذا كلامٌ حسنٌ يُدهش، ويروع، ليس فقط لأنه يشيرُ إلى أنّ ما ذكره الباقلانيّ في البابِ قليلٌ جدا من كثيرٍ جدًا، وإنما لأنّ الباقلانيّ يأخُذ بيد قارئه، وينقله من طالب علمٍ يحصل العلم إلى باحث يبحث ويستخرج كما يبحثُ صاحب الكتاب الذي يقرؤه ويستخرج، ويضع الباقلاني في عنقِ هذا القارئ أمانة تفصيل ما أجمل الباقلاني، واستخراج ما وضع عليه الباقلاني علامة، ولم يستخرجه.

الباقلاني صنع في كتابه علما وهو الآن يصنع عالما ليتم علمه، وبعبارة أخرى الباقلاني لم ينظر إلى القارئ من أفق عالٍ، ولم ينعزل في الأبراج الأكاديمية، ويعتبر القارئ تلميذًا، وإنما قارب القارئ وصاحبه ووضع قلمه في يد القارئ، وقال له التفصيل عليك، والنظر والاستخراج عليك، ولاحظ أنّني ، أنا وأنت من قرّاء الباقلانيّ الذين وضع في أعناقهم هذه الأمانة، وعليك أنت بعد ذلك أن تتأمَّلَ قيمةَ هذه القيمة، وإِلى أيّ مدَى صدق أهل العلم في خدمته، وأنَّهم لم يصنعوه فقط، وإنما صنعوا له رجالاً، وعلموهم صناعة العلم. الباقلاني يماشي طالب العلم حتّى يصل به إلى نقطة، وعندها يقول له فرغت الآن من تحصيل العلم وعليك أن تبدأ عملا آخر هو صناعة العلم، وإنتاج العلم.

ومن أَفضَلِ ما قال الباقلاني في هذا المعنى قوله: "ولعلك تستدل بما قلناه على ما بعده، وتستضيء بنوره وتهتدي بهداه".

وهذا ظاهر في أنّ العلم الذي قاله ليس إلا دليلاً على الذي لم يقله، وليس إلا نورًا يُضِيءُ الطريق، ويهدي إلى علم لم يقله، فإذا قلنا بعد ذلك: إنّ الباقلاني استقصى النظر في علم الإعجازِ نكون قد قلنا عكس ما قال، والذي قاله الباقلاني قال عبدُ القاهر مثلَه، وأكثرَ، وكان إذا وقف عند مسألةٍ فتح بابها، وانثالت عليه مسائلها قال ما قال، ثُم يقطع كلامه فجأةً، ويقول ولو بقينا نتتبعُ محاسن هذا الباب لطال بنا الكلام، ونكتفي بما قلنا، وننتقل إلى كذا، وهذا شائع جدًا، والغريبُ أنَّ الذين جاءوا بعده، ونحن منهم لم يضيفُوا شيئًا إلى الذي قطع الكلامَ فيه قبل تمامه.

ولو تتبع متتبعٌ المواضع التي أشار علماؤنا إلى أنّهم لم يتموها لوجد من ذلك الكثير الدال على نقص ظاهرٍ في كثيرٍ من مسائل العلم.

وهذا النقص الظاهر هو تقصيرنا، ولو فعلناه لما كان هناك أي مسافة بين الواقع والمأمول.

واقع الدرس البلاغي:

والآن أذكرُ واقع الدرس البلاغيّ الذي صنعناه نحن بعد ذكر طرف من الواقع الذي صنعه كرام علمائنا.

وحين أقولُ صنعناه نحن لا أعني جيلي، ولا جيلكم، وإنما أعني جيل الشيوخ الكبار الذين عاصروا إنشاء كلياتِ اللغة العربية في الجامعات العربية، وجعلوا الهيمنة لكتاب "الإيضاح للخطيب القزويني" على الدرس البلاغيّ، وكتاب "الإيضاح" ليس خالصًا للخطيب القزويني، وإنما هو خلاصة جهود علماء هم أكرم وأبرز وأسخى علماء عرفُوا في تاريخ هذا العلم، وأولهم عبد القاهر، ولم يكتب أحد في البلاغة أفضل منه، وكتاباته كنزٌ ومنجم كلما تدبرت وفكَّرت في كلامه وجدت شيئًا جديدا، وقد راجعته كثيرًا واستخرجتُ منه ما استخرجته، وما زلتُ أقع فيه على أفكارٍ أعجب كيف خفيت عليَّ هذا الزمنَ الطويل، وهذا من بركة علم الذين صدقُوا، ثُم أدار الزَّمَخشَريّ عقله على علم عبد القاهر، فأنتج كتاب"الكشاف" الذي هو بداية مرحلة متميزة في كتب التفسير وتاريخه والحقيقة أن الذي أحدث هذا الأثر في تاريخ التفسير هو عبد القاهر؛ لأن عبد القاهر ساكنٌ في قلب "الكشاف" بذوقه وقدرته البلاغة على التحليل، وكان الزَّمَخشَريّ قريبًا جدًا من زمن عبد القاهرِ، وقد كتب الزَّمَخشَريّ "الكشاف" فِي آخر حياته، وبين تأليف الزَّمَخشَريّ" الكشاف"وموت عبد

القاهر ما يقرب من ستين سنة، ثُمَّ جاء الرازي، ولخصّ كتابي عبد القاهر في"نهاية الإيجاز"، ثُم جاء السكاكيّ، وضبط معاقد كلام الأصحاب الذين هم عبد القاهر والزمخشري والرازي، وكان عمله هذا مخالفا لعمل الرازي، كما كان عمل الرازي مخالفا لعمل الزَّمَخشَريّ، وكلّ هذه العقليات الرفيعة تدور حول كلام عبد القاهر، وكل هذا جفف كلام عبد القاهر من طبعه ومائه، وبقيت الأفكار الأساسية شبه عارية مما كان يكسوها به طبع عبد القاهر، وقد لاحظ الخطيب القزويني شيئًا من ذلك، ورضي عمل أبي يعقوب السكاكيّ، ولو لم يرضه لرجع هو إلى كتابي عبد القاهر، وبدأ سلسلة جديدة، ولكنه لم يفعل، وإنما راجع عمل السكّاكيّ ونقله إلى لغةٍ أخرى أقل كزازة من لغة السّكّاكيّ، وقد وصفوا شعر ساعدة بن جؤية الهذلي بأنه شعرٌ كزٌ لا يصلح للمذاكرة، ولو قلت هذا في كلام أبي يعقوب لم تكن ظالمًا، والمهم أنّ الخطيب لَمَّا لخّصَ كلامَ أبي يعقوب رأى التلخيص غَيْرَ بيّنٍ لطلاب العلم، فكتب كتاب "الإيضاح" ولابدّ أن نلاحظ هنا أن طلاب العلم كانوا وحدهم بيْن عيني الخطيب، فاصطفى لهم ليس علم السّكّاكيّ؛ لأنَّ المفتاح ليس علم السّكاكيّ، وإنما هو علم ثلاثةٍ من كبار علماء البلاغة، ويبدو والله أعلم أنّ الخطيب كان صادقًا مخلصًا فِي خدمة

العلم؛ لأنَّ كتابيه هذين رزقا قبولاً وعنايةً وشرحا وتَحْشِيَةً منْ كبار شيوخ العلم، كما رزق الإيضاح صيرورة في معاهد العلم، وما يزال.

ولمْ يُدقّق اتجاه بلاغِيّ كما دقق هذا الاتجاه، وحسبك بمصدره الذي هو الشيخ عبد القاهر، وهو رجلٌ صادقٌ، وملهمٌ، ثُم الزمخشريّ ثُم الرازي ثُم السكّاكيّ كلُّ هؤلاء دقّقُوا وراجعوا، واختبروا، ثُم الخطيبُ وشراحه، وكلُّ هؤلاء راجعوا مادّة هذا الاتجاه، وكلُّ هؤلاء لا خلاف في أنهم من الأعيان، ومع أنهم تواردوا على مادة بلاغيّةٍ واحدةٍ هي ما صنعه عبد القاهر، فقد كان كلُّ واحدٍ منهم رأسًا بِنفسِهِ، وكذلك الشراح كل كتابٍ له طابعه، وله تميزه، ولا يمكن أن تقول إن مختصر سعد الدين أو المطول يلتبس بمواهب الفتاح أو بعروس الأفراح، وهذا ليس له إلا معنى واحد وهو انهم جميعا من الطبقة العالية؛ لأنهم تميزوا مع وحدة الأصل مع ثبات حقائق العلم؛ لأن العقل المتميز إذا مرّت به مسائل العلم اكتسبت من طبعه وسَمتِه ونَكهتِهِ، ومن هذه النقطة يبدأ النقد الواجب لأنفسنا؛ لأننا لم نقدم الخدمة الواجبة لهذا المنهج الرائع الذي اختاره الجيل الأول الذي وضع مناهج الدراسة البلاغية في جامعاتنا، وان وجد كتاب الإيضاح، وأنه أساس المنهج لا يعني توقف التأليف والاجتهاد وتقديم محاولات تقرب المادة لنفوس طلاب العلم، وقد كان كتاب الإيضاح في أيدينا، وبجواره

كتاب"المنهاج الواضح " للشيخ حامد عوني، وكان كتاب الشيخ عوني إضاءة تضيءُ لنا ما يلتبس من كتاب الإيضاح.

وكنا في هذه المزاوجة نحظى بأمرين: الأول: الوعي بمفردات المادة، والوعي بتطبيقات هذه المفردات؛ لأنّ المصنف رحمه الله وأثابه كان شديد العناية بأخذ أيدينا نحو طريقة الانتفاع بالمادة، وليس بتحصيلها فقط، وكان يختار من الشعر ومن كريم نصوص البيان ما يجري عليه التطبيقات التي كانت تهدي إلى معرفة دقائق أسرار صناعة الشعر، وصناعة الأدب، وكنا لا نملّ من قراءة هذا القسم من الكتاب، وكانت اللغة قريبة منَّا؛ لأنها لغة أستاذ يحادثنا ونحادثه، ويسمع منا ونسمع منه، فكان التواصل بيننا وبين كتابه تواصلا لا عسر فيه.

والأمر الثاني الذي نحظى به هو إلف لغة الإيضاح، وطريقته ومنهجه وكيف كان يقبل ؟ وكيف كان يحتج لما يقبل ؟ وكيف كان يرفض ؟ وكيف كان يحتجّ على ما يرفض ؟ وإدراك لغة الكتب المصادر، وفهم طرائق هذه المصادر من الضرورات التي لا غنى عنها، ولو كان الأمر بيدي لما جاز أن يتخرج طالبٌ من الكلية، وهو لا يحسن قراءة مصادر اللغة والنحو والبلاغة، وكيف يستخرج منها مقاصد مؤلفيها، وكيف يستخرج منها أدقّ

الأفكار وأغمض الإشارات؛ لأنَّ كلّ هذا من الأدوات اللازمة له ساعة أن يدخل ميدان البحث العلمي، ولا يؤخذ العلم عمن لم يحسن أخذ العلم من مصادر العلم وأمهات مراجعه، وكل زمان له طريقة يلقيها على من يعيشون فيه، ولا يستطيع أحدٌ مهما كان تفوقه أن يخرج من تحت رداء الزمن الذي يعيش فيه حتى وإن كان في حجم سيبويهِ، وقد ألقى الزمان طريقته ورداءه على كتاب سيبويه حتى قالوا كتاب سيبويه كتاب نافع، ولكنه كتب بشريطة زمانه، ومن حق كل جيلٍ أن نكتب له علومنا بشريطة زمانه الذي هو زماننا، وهذا الديدن هو ديدن كرام علمائنا، ولهذا كتبوا كل علومنا في كل زمان عشرات المرات، ولم يطالبوا أجيالهم أنْ يتعلموا العلم مبتدئين بالكتب التي سبقتهم، وإنما علموهم بأقلامهم هم وبلغتهم هم ثُم لما اطمانوا إلى أنهم قادرون على قراءة مصادر العلم أحالوهم عليها، وقرؤوها لهم، وأجازوهم فيها، ولم يترك علماؤنا أجيالنا للأنظمة السياسية لتعلّمَهُمْ، وإنما حملوا هم أعباء إعداد الأجيال، وإلقاء مسؤولية أمانة العلوم على هؤلاء الأجيال، فكتبوا لهم العلوم في مستويات مختلفة حسب أعمارهم كما فعل ابن هشام الأنصاري العالم الذي صدق قومه، فقد كتب"قطر الندى" للمبتدئين، ثُم كتب " شذور الذهب" لمن خطا خطوةً ثمَّ كتب "أوضح المسالك" لمن شدَا في طلب العلم ثُمّ كتب"المغني" لمن صار من أهل العلم

وهذا يعني أنّ هذا الصادق الأمين كانت أجيالنا بين عينيه في غرفة بيته يُجري قلمه على أوراقه، وقل مثل ذلك في غيره، فالخطيب لم يكتب "الإيضاح" بعد"التلخيص" إلا لأنه رأى غموضا في "التلخيص" يلتبس على طلاب العلم، وسعد الدين لم يكتب "المختصر" بعد"المطول" إلا لأنه رأى في المطول مباحث تصعب الإحاطة بها على طلاب العلم، وقد كتب أمير المؤمنين حمزة بن يحيى العلوى كتاب"الطراز" ليعين طلاب العلم على قراءة "الكشاف" وهذا هو الديدن الذي أضعناه، فوقعنا فيما نحن فيه، ورأينا البون الشاسع بين الواقع والمأمول، فتنادينا لرأب الصدع.

قلت " إن مسائل العلم إذا مرت بالعقل المتميز اكتسبت منه رشح تميزه، وتشربت من طبعه وسمته بمقدار ما تشرب هو من طبعها وسمتها، واستطاع أن ينفحها بمقدار ما نفحته، وأن يبعث فيها من الحيوية والنضارة بمقدار مداخلته لها، وملازمته لها، ومعايشته لها، ولم أعرف أن علما جمد أو تأخر أو جفّ ماؤه أو ضعف أثره، وإنما أعرف أن كلّ ذلك إنما يوصف به القائمون عليه، والعلوم لا تتحرك وحدها، ولا تتقدم وحدها، ولا تشبع رغبة طلاب العلم وحدها، ولا تسلك سبيلها إلى قلوب الأجيال القادمة وحدها، وإنما كل ذلك هو عمل القائمين عليها، تسرع إلى الأمام بخطاهم هم، وليس بخطاها، وتبطئُ ببطئهم هم، وليس ببطئها، وتتوقف يوم أن

توقفوا، وتظلع يوم أن يظلعوا، وتشحب يوم أن يشحبوا؛ لأنها لا توجد إلا في عقولهم، وأفتدتهم، ولهذا سُمّوا حملة العلم، ولن يضيع محمولٌ إلاّ إذا ضيعه حملته ولهذا كان علماؤنا يحرصون على أن يقنعوا طلاب العلم بالعلم. يعني لم يعلموهم العلم فقط، وإنما كانوا يقنعونهم به ليصيروا حملة وحماة؛ لأني قد أحمل العلم لآكل الخبز بأجر هذا الحمل، وهؤلاء مشكورون، ولكنهم ليسوا هم الحماة؛ لأنَّ الحماة لا تنام عيونهم عن طلب لآلئه؛ لأنهم عشقوا وحفَّهم الوجد، فدعوا كلّ من أحبوا إلى الذي أحبوه، فأجابهم من هيأهم الله ﷾ لخدمته، وأودع الله ﷻ في قلوبهم حب العلم، وخدمة طلابه، فانصرفوا إليه بحبّ يزيد حتى يكون جَوًى، وهم يقولون:

فيا حبها زدني جوًى كلّ ليلةٍ *** ويا سلوة الأيام موعدك القبر

هؤلاء إذا وُجدُوا فليس هناك أزمة بيْن الواقع والمأمول

لم تزدهر دراسة الإعجاز في القرن الرابع الهجريّ وحدها، ولم يكن واقعها واقعا مأمولا، وفوق المأمول إلا بجهود رجال ثلاثة هم من أكرم علمائنا: الرماني والخطابي والباقلاني، ولم تنبجس فيوضات الأسرار من لسان العربية الشريفة الممثلة في طرائق العربية في الإبانة عن أغمض معاني النفوس، أقول لم تنبجس هذه الفيوضات وحدها، وإِنّما انبجست بعد ما

أتيح لها صادق ناصح لم يزل يكد ثماده حتى تفجر ماؤه، ولم يزل يقدح في غموض ورموز كلام القدماء حتى نطق وأبان، وليس بعيدا أن يكون بيننا من يمكن أن يكون في قامة واحد من هؤلاء، وبشرط واحد وهو أن يَخلُص (بفتح الياء) ويُخلِص (بضم الياء) للذين خلصوا وأخلصُوا له، ولا يدرك الحقُّ إلا بالجدّ كما قال أمير المؤمنين علي ﵁ ومن سار عل الدرب وصل ومن زرع حصد ومن يستعن يُعنْ.

وقد سمعت ممن سمعت منهم أن لله عطايا يعطيها لطالب العلم إذا فرغ من بذل أقصى ما عنده، وهو صادق متجرد، وفي هذه اللحظة تأتيه من الله سبحانه وتعالى منائح وعطايا؛ لأن العلم عندنا صلاة وزكاة وجهاد، وقد قالوا قديما: مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء. والله سبحانه وتعالى لا يقبل دم شهيد كاذب، كذلك لا يقبل مداد عالم كاذب.

العلماء في رباط:

وكما أمرنا ربنا سبحانه وتعالى بالرباط على ثغور أرضنا أمرنا كذلك بالرباط على ثغور فكرنا وعلومنا وثقافتنا وآدابنا، وسمى سبحانه وتعالى الخروج إلى طلب العلم في هذه الأمة نفرًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة: ١٢٢ والنفر

خروج للجهاد كما جاء في السورة نفسها: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ التوبة: ٤١ وهذه إشارة واضحة كالشمس ممن له الأمرُ والخْلقُ إلى أنَّ أمتنا تُستهدفُ في علومها كما تستهدف في أرضها وثرواتها، وأنَّها لابدَّ أن يكون لها فرقتان تجاهدان عنها:

فرقة تحمل السَّيف لتدفع العدو عن حدودها وثرواتها.

وفرقة تحملُ القلم لتدفع تيَّارات الإلحاد، والخلط والإفساد عن علومها، وأن أرضنا يجبُ أن تكون عامرة بعلومنا، فإذا غابت عنها علومنا وحضرتها علوم غيرنا، فقد أوشكت أن تكون لغيرنا، وكما أنَّ جهاد المجاهدين يكون للحفاظ على الأرض كذلك يكون جهاد العلماء لتحصين هذه الأرض، وإذا لم يكن كذلك فقل لي: لماذا قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ التوبة: ١٢٢ ولماذا سمّى خروجَ طالب العلمِ منْ بيْت أبيهِ إلى مجالس العلماءِ نفرًا كخروج المجاهد بسيفِهِ وفرسِهِ؟

ولماذا كانت مجالس العلم كمجالس الذكر تحفُّها الملائكة ؟ ولماذا قال أوائلنا مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء يوم القيامة، ولماذا كان علماء الأمة فِي رباط إلى يوم القيامة ؟ ودخول العمل العلميّ فِي باب العبادة، وارتباطه بالجهاد الذي هو أفضل القربات وفّرَّ للعمل العلميّ في منهجنا شروط

قبول الأعمال الصالحة، ولها شرطان: الأوّلُ أن تقع على الوجه الشَّرعيّ، والثاني أن تكون خالصة لله، والذي يقابل الوقوع على الوجه الشَّرعيّ في العمل العلمي هو بذل المجهود الذي تراعى فيه الدقّة، وتكرار المراجعة، والنظر إلى الجهات التي تدخل منها الآفة وتفاديها. والنظر إلى الجهات التي يدخلُ منها الحسنُ والنفعُ والإكثار منها. يعني بذل أقصى الطاقة، وأقصى الكد، وأقصى المراجعة حتّى لا يبقَى فِي النفسِ بقية تضيف نفعًا إلى هذا العملِ إلاّ بذلته، ثمَّ الإخلاص الكامل الذي لا تشوبه شائبةُ عُجبٍ أوْ شَائبة طلب ذكر فِي النّاسِ، وإنما نفع أهل العلم، وفتح أبواب العلم لأبناء هذه الأمة تحببًا إلى رسولها ﷺ لأنّ من أحبها، فبحبه ﷺ أحبها، ومن آذاها فقد آذاه ﷺ.

وإذا أردت أن تتأكَّد منْ أنَّ الذي قلته كما قلتُهُ فاقرأ مقدمات كتب علمائنا، وتلمّس الضراعةِ التي في قلوبهم، وهم يقدمونها، وكيف كانوا يُؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلةٌ، وهذا هو الفرق الشّاسعِ بيْن علماء هذه الأمّة، وعلماء غيرها، ولهذا ترى كلّ جيل من أجيال علمائنا يدعو الله ﷾ أن يُلحقه بمن سبقه كرامة نفسٍ وقرّة عينٍ.

الدرسُ البلاغي وأقلام المعاصرين:

وهذا ولم تكثر الْكتابةُ فِي الدراسة البلاغية كما كثرت في هذه السنوات الأخيرة، فقد كتبنا، ونكتبُ بحوثًا لدرجتي التخصص والعالمية، ونكتب بحوثًا للترقية في السلم الوظيفيّ، ولو راجعنا عدد البحوثِ التي تكتب في الكليات في العالم العربي لوجدنا فيضًا لا يُحدّ، ولا يُعدُّ، ولمْ تكتبْ بحوثٌ بهذه الوفرةِ فِي تاريخ التصنيف البلاغيّ والسّلسلة الذهبية المتميزة في تاريخ التصنيف البلاغيّ، والتي بدأت بعبد القاهرِ، وانتهت بشراح التلخيص استغرقت أربعة قرونٍ هي التي بين عبد القاهر، وآخر الشراح، وكلّ جامعةٍ من جامعاتنا يُكتبُ فيها كلَّ عامٍ أضعافَ هذه السّلسلة، ثُم تلاحظُ أن البحث البلاغيّ تراجع وتخلف كثيرًا عن الطموح وعن المأمول، ولم تسعفه هذه الدراسات، ولم تدفعه إلى الواقع الذي يحقق فيه الأمل والطموح، فأيّ شيءٍ حدثَ ؟ وكيفَ كانت كثرة المصنفات في العلم عاجزة عن عن دفعه إلى الأمامِ ؟

لم أجد عندي الإجابة الشّافية والْكافية، ولكن عندي من ذلك شيءٌ، هو الذي أُتيح لي أن أتأكّد منه.

وأوّل ذلك ،و أظهره أن البحوث التي تنال بها درجة التخصّص والعالمية لا ينشر منها إلا القليل، وغالبًا لا تقرؤها إلاّ اللجان العلمية،

وبعض الباحثين، وهي حبيسة في المكتبات، والبحثُ الذي لا يقرأ كأنه لم يكتب.

والبحوث التي فوق ذلك وهي التي يكتبها أعضاء هيئة التدريس للترقية أكثرها ينشر نشرًا محدودًا، وقلما يُعاد طبع ما ينشرُ، وهذا يعني أنها قِليلةُ الانتشارِ قليلة الأثرِ، ومهما كانت جودتها فإن الذي لَمْ يُقرأ كأنّه لمْ يكتب.

ويبقى شيءٌ آخرُ هو أهمّ أسباب أزمة واقع الدرسِ البلاغيّ وهو قلة الكتابة في متن العلم أعني مفرداته، ومكوناته التي هي علوم البلاغة الثلاثة، والتي يستقِي منها الجيلُ، ويربّى عليها، وتتكون فِي نفسِهِ للبلاغة صُورة من خلالها، فيقبل عليها أو ينصرف عنها.

أكثر بحوثِ البلاغةِ التي تكتب للدرجات العلمية تكون في كتب التفسير أو في كتب الحديث أو في الشّعر، أو ما شئت، وقد تغلغل البحث البلاغيّ فِي علوم كثيرة تراه بجوار الفقيه، وهو يعالج بناء اللغة ليستنبط الأحكام، وتراه بجوارِ الأصوليّ وهو يشرح كيف تستنبط الأحكام، وتراه بجوار المفسر والمحدث، ودارس الشعر إلى آخره، وكلّ هذه ميادين خصبة ترى فيها البحث البلاغيّ أكثر مما تراه في كتب البلاغة؛ لأنه هناك ناشبٌ

ومتشابك مع النصوص، وهاهو ميدانه الحق الذي جاءنا منه، وبحوثنا تكتب في هذه الميادين الخصبة ثُم تدخل المكتبات، ويُضرب على آذانها في هذه المكتبات، وقلما خرج منها بحثٌ ليقرأ.

ويبقى متن البلاغة الذي يعالجه الجيل غير ممسوس من يوم أن كتبه الذين يفصلهم الزمن عنّا بمسافات بعيدةٍ، وقد يعالج الطلاب عسر اللغة، وعسر الطّريقة؛ لأن أقلامنا ابتعدت عن تقريب هذا المتن، وتهذيبه، وتشذيبه، وإعداده إعدادًا متقنا ليقارب طباع الطلاب، وليفتح شهيتهم، ويلفت قلوبهم وعقولهم إليه، ويلاحظ أن علوم البلاغة الثلاثة أقرب إلى الفطرة والطباع، وقد كان عبد القاهر يجتهد كثيرًا لِيُبين ملاءمة هذه الفنون لمبنى الطباع وموضوع الجبلة، ومع ذلك لم نستطع أن نُقرّب إلى الطباع علما بني عليها، وهذا مؤسفٌ جدًا، وسببهُ واضحٌ جدًا، ولا شكَّ أنني شديد العناية بالدراسة البلاغية في كل فروعها، وعنايتي أكثر بالدراسة التي تقربُ أصول العلم إلى نفوسِ طلاب العلم، وتهيءُ هذه الأصول لتسكن في قلوب الطلاب، والعلم الساكن في القلب علم سكن في مستقرّه، وهو أفضل بكثيرٍ من العلم الساكن في بطون الكتب، وكان أوائلنا يسكنون علومهم في صدور تلاميذهم، ولم يظهر التدوين والتصنيف، ولم يكثر إلا بعد زمنٍ، ولم أهتمّ بشيءٍ كاهتمامي بتجويد الفكرة التي تتلقاها القلوب

برغبة وغبطةٍ ورضى، وأكره أن أعلم الطالب قاعدة لا يحبها، ولا يقتنع بها لأنها ستكون قلقة في نفسه، ولن تدخل في بناء عقله وفكره.

وكنت وما زلتُ أحرصُ على أن أقدّم لطلاب العلمِ كلام عبد القاهرِ الذي يفتح به درسه، ويقنع فيه طالب العلم بأهمية هذا الباب حتّى يقبل الطالب بهمَّةٍ وبموفور نشاطٍ، وكان يعرضُ بعضَ فنونِ البلاغةِ فِي صورٍ رائعةٍ من الشعرِ والبيان العالي، ويشيرُ إلى أنَّ هذا العرضَ جعلَ المعنى يتحبب إليك، وأعجبُ كيف يتحوّلُ الأمر عنده من حبّ الدارسِ إلى المادّةِ إلى تحببِ المادّة للدارسِ، وأرى أن مهمّة الرجل ليست هي أنْ يُعلّم العلمَ، وإنّما أن يعقدَ محبّةً بيْن العلمِ وأهلِهِ؛ لأنّ هذه المحبّة هي التي تجعلُ طالبَ الْعلمِ يمنح العلمَ نفسَهُ ووقتَهُ وكَدَّهُ، وعُمره، ولن يكونَ عالمًا إلا بذلك؛ لأنّ العلمَ لا يعطيك بعضَهُ حتّى تؤتِيه كلّك، ولو أعطيته بعضَك أعطاك قفاه.

إنّ زهد طلابنا في علومنا أمرٌ لا يجوزُ السُّكوت عنْهُ، ولا إغضاء العينِ عنه كما أنه لا يجوزُ أن تعلّله بأنّهم هُمُ المنصرفون عن العلم، وإنما لابدَّ أنْ نبحثَ فِي هذه العلوم عن العوامل التِي صَرفتهم عنها، وأن نجتهد فِي أن نزرع مكان هذه الصّوارف عواملَ جذبٍ وتقريبٍ وإقناعٍ، وقد قلتُ إنّ

سلفنا لم يكن يُعلّمُ العلمَ فقط، وإِنَّما كان يعقِدُ محبّةً بيْن الْعلمِ وطلابِهِ، وأنهم كانُوا يَتحبّبونَ إلى العلم كما كانَ الْعلمُ يَتحبّبُ إلـيْهمْ، وهـذا وإنْ كـانَ مـن المجازِ إلاَّ أنَّ وراءه ما يَدُلُّ عليْهِ.

ومن الذي لا أفهمه أن بعضنا لَمَّا رأى طلابنا زاهدين في علومنا لم يحاول أن يعالج هذا الأمرَ الـذي هـو خطرٌ، ويفـضِي إلى خطرٍ، وأن يتـداركَ هـذا الانـصرافَ، وإنّـما انـضمَّ إلـيهم، وهـاجم علومنـا وسـماها علومًا تقليديـة، ونزعتـه نزعـةٌ مـن التنوير فسماها أيضًا كلاسيكية، وقـدم لهـم مـن علـوم الآخـرين ليـتمّ صرفهـم عنهـا، يعنِـي أنّـه وجـد طلابنـا مـع علومنـا فِي أَزمـةٍ فاستغلها، ونكأ الجُرحَ بِجرحٍ أوجعَ، والـشكوَى منـه، وإليْـهِ لا تنفـعُ لأنهـا مثل شكوى الجريح إلى الغربان، وبئست الشكوى إلى الغربان.

ولن أستطيع أن أُغـري أجيالنـا بعلومنـا بالموعظـة الحـسنة، وأنهـا تـراثُ آبائهم، وإنّما أغريهم بها بشيءٍ واحدٍ لا غير، وهـو أن أقـدمها لهـم في صُـورة صـحيحةً ومـستقيمة ومقنعـةً ومقترنـةً بثمارهـا، وأنهـا تفـتحُ لهـم مـنْ أسرار الـشعرِ والبيـانِ مـا لا يفتحـه غيرهـا، والطالـبُ إذا استـشعرَ أنَّ هـذا العلـمَ يكسبه خبرةً بالشعرِ والبيان، وأنّه يخرج منْ قراءةِ الكتابِ أو الدرسِ بفائـدةٍ أقبلَ عليهِ منْ غيرِ أنْ نطلبَ منْهُ الإقبالَ عليْهِ.

وليس تقديم البلاغة في الكتاب والدرس بصورة مغرية للطلاب أمرا صَعبا.

ومن حقّ الجيل في كلّ جامعاتنا أن تكون بين يديهِ كتب في علوم البلاغة الثلاثة متنوعةً ومتعددةً، وكلّ كتابٍ له نكهةٌ خاصّةٌ بِه، وله مذاقٌ، وفيه شيءٌ ليس في غيره، وكلّ قلمٍ في يدِ باحثٍ جادٍّ صادقٍ ومنقطعٍ للعلمِ فيه مدادُ صاحبِهِ، وفيه طبعه، وحسه، وقلبه وعقله، وله بَصمتُه الخاصّة بِه، والقلمُ له بصمةٌ كبصمة الأنامل التي تحمله، فإذا تكررت الكتابات مع الجد اللازم والصبر اللازم توفرت مؤلفاتُ البلاغةِ في علومنا الثلاثة بين أيدي الطلاب، ووجد كلٌّ منهم ما هو أقربُ إلى طبعهِ، ووجدوا أنفسهم أمام بلاغةٍ أكثر ثَراءً، وأكثرَ مُتعةً، وأكثرَ إغراءً، والمادّة البلاغيّة قريبةٌ جدًا من الفطرةِ وقريبةٌ جدًا منْ مخاطبةِ الطباع، والمشقّةُ فيها مشقة ممتعةٌ؛ لأنها تبحثُ فِي مكامن أسرار البيان التي هي في الحقيقةِ أسرار نفوس صُناعِ البيان من شعرٍ ونثرٍ، ومن المفيد أن يقتنع الطالبُ بحقيقة قامت عليها الدراسة البلاغية، ولا يسُدُّ أيُّ علمٍ آخرَ مسدّها، وهي إثارة معادن المعاني الكامنة في زوايا المباني، وقد عبر عنها الشيخ عبد القاهر في نصٍّ منْ أكرم نصُوصِه. قال – رحمه الله تعالى – يستجهلُ من زَهدَ فِي دراسةِ هذا العلم، وأنّه لا يعلم " أنَّ ههنا دقائقَ وأسرارا طريقُ العلمِ بها الروية والفكرُ،

ولطائف مستقاها العقل ُوخصائصُ معانٍ تفرّد بها قومٌ قد هُدوا إلِيْها، ودُلُّوا عليها، وكُشِفَ لهم عنْها، ورُفعت الْحُجبُ بيْنهم وبينها، وأنها السببُ فِي أنْ عرضت المزيّةُ فِي الكلامِ، ووجبَ أنْ يفضلُ بعضُه بعضا، وأنْ يبعدَ الشأو في ذلك، وتمتد الغايةُ، ويعلو المرتقَى، ويعز المطلب حتّى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخرج عن طوقِ البشر"انتهى كلامه(١).

وهذه الدقائقُ والأسرارُ واللطائفُ وخصائصُ المعاني ليست شيئًا إلا شيئا واحدا، وهو المعاني المطوية تحت التقديم والتعريف والتنكير، ومجيء الواو، وحذفها، والفرق بين التعريف بالاسم والتعريف بالفعل؛ لأنّ هذا هو الذي شرح به عبد القاهر هذه الخصائص، والدقائق، وعلماء هذا العلمَ المدركون له هم الأقوام الذين هدُوا إليها، ودُلّوا عليها، ورفعت الحجب بينهم وبينها، وهذه الأوصاف مشعرةٌ بأنهم خلقٌ متميزٌ من خلق الله ﷻ ترفع الحجب بينهم وبين حقائق ودقائق تظلّ أستارها حجابا بينها وبين غيرهم، أقولُ هؤلاء الذين رفع الشيخُ قدرهم هم الذين درّبوا أنفسهم على الوقوف عند هذه الفنون، ونفذوا من طول الدربة إلى التي تحتها، وأثاروه، وكشفوا عنه الغطاء، وهم هؤلاءِ الطلاب إذا أحسنا إعدادهم لذلك، ولن

---

(١) دلائل الإعجاز، قراءة محمود شاكر: ص٧.

يكون هذا إلا بالكتب المتنوعةِ التي تتولّجُ إلى ما وراء هذه الفنون، وتأخذُ بأيدي الطلاب إليها، وتكشفُ لهم الغطاء الذي هو غطاء اللغة الذي صنعه اللسان، وغطى به ما جرى في القلوب والعقول، وكلّ هذا ممْتِعٌ وَمشقّتُهُ مُمْتِعَةٌ.

وإذا كانت هذه هي فائدة هذا العلم، وهي على هذا الحدّ من الإمتاعِ والمؤانسة ثُم زهد فيها وانصرف عنها طلابنا، وأصبح واقعها بعيدًا عن المأمولِ، فليس لهذا سببٌ إلاّ سببٌ واحدٌ هو أننا نحنُ المسْؤولون عنها؛ لأننا لم نقدمها بِصُورتها الصّحيحةِ مع أنّه كان من الواجب علينا أن نزيدها جلاءً وثراءً وخصوبة، وأن ندخل بها فِي آفاق جديدة لم نصنعها لها، وإِنَّما صنعها تطور البيان، وتطور الشعر.

ونصّ عبد القاهر السابق يقُول لنا ليس تعريف الفن البلاغيّ وذكر شواهده هو علم البلاغة، وإنما علم البلاغةِ هو كشف الأسرار والدقائق. وقواعد البلاغة محصورة جدًا، ولو جمعت كلّ مفردات علم المعاني ستجدها صفحات، ولكنها لا تكون مفيدة ومغرية للطالب إلا إذا رأى هذه القواعدَ القليلة غارقةً فِي جداول من حر الكلام ومتغلْغِلة فِي مبانيه، ومستخرجة لأدقّ معانيه، وكتبُ البلاغة قبل عبد القاهر وبعد عبد القاهر

تفيضُ بشواهد للفنون البلاغية، والشعرُ كلّه شواهد والنثرُ كلّه شواهد، وقبل ذلك وبعده وفوقه شواهد الكتاب والسنة.

وهذه الشواهد مع أهميتها في تدريب الطلاب على التحليل لها قيمةٌ أخرى تجعلنا نتحرَّى فِي اختيارها، وهذه القيمة هي صقل النفس الإنسانية وتهذيبها بما في الشواهد من قيم أخلاقية ومروءاتٍ ومعان إنسانية نبيلة يُكرّرُ الطالب قراءاتها حتَّى تسكن قيمها في نفسِهِ، ويجري لسانه بالكلام العالي، وتُدرّبه على التحليل والتذوق، وكلّ هذا واجبٌ وتنوعه واجبٌ، وأعتقدُ غير مبالغٍ أنّ التأليف في علوم البلاغة الثلاثة واجبٌ على كل عضو هيئة تدريس وجوبًا إذا قام به البعض لا يسقط عن الباقين؛ لأنّ تنوع التصنيف ووضعِهِ بيْن أيدي طلاب العلم هو السبيل كما قلت الذي ليس لنا سبيلٌ سواه لإعداد أجيالنا إعدادًا يقُوم على الاقتناع بأنها خير زادٍ، وأنها تكشفُ لهم أسرار البيان فِي لغتهم التي فِي ألسنتهم، ويجبُ أن نذكر أنَّ التحديات التي ستُواجِهها الأجيالُ المقبلة أقوى وأشرسُ من التّحديات التي نواجهها اليوم، والتي تستهدف أيضًا علومَنا وثقافتنا التي هي الوجه الثاني لعقيدتنا.

شُغلتُ كثيرًا بما يتطلبه إعداد الجيل الذي سيؤول إليه كل شيءٍ، وسيكون مسؤولاً عن كلّ شيءٍ، سيكون مسؤولاً عن العلوم وتطويرها وحمايتها، وحماية الأرض والتاريخ والتراب الذي فيه عظامنا، ولهذا أرى أنّه لا يجوز أن يكون بين أعيننا شيءٌ أهمّ منه، ولا يجوزُ أن نبقِي في نفوسنا شيئًا إلا وضعناه بين يديْهِ ؛ لأننا إذا أحسنا إعداده حفظ كلّ شيءٍ، وإذا أسأنا إعداده أو أهملناه أو أغفلناهُ ضاع كل شيءٍ، وإذا لمْ نشربْ قلوبَهم حبّ بيان العربيةِ فلن يحفظوها، وإذا لم نُشربْ قلوبهم حب علومنا فلن يحفظوها.

تطور الأساليب:

وأريد أن أختم كلامِي بإشارةٍ إلى ما أراه من صميم الدرس البلاغيّ، ويحتاج منا إلَى عِنايةٍ أكبر.

وأوّل ذلك التغيُّر الذي طرأ على الأساليب والصور من زمان إلى زمان حتى نرى الأساليب والصور في العصر العباسيّ قد طرأ عليها ما تختلف به عن الأساليب والصور في العصر الجاهليّ أو الإسلاميّ أو الأموي، وقد حدث تغيير ببطءٍ شديدٍ بين الجاهليّ والإسلاميّ، وبين عصرِ صدر الدعوةِ والعصر الأمويّ، ولكنني ذكرتُ الجاهليّ والعباسيّ لأنّه ظاهرٌ لا يلتبسُ والمطلوب بيانُ منْشَأَ هذا التغيير وموضعه . الكلمات هي هي، ومعاني

النحو التي هي التراكيب ودلالالتها هي هي وصور التشبيه والبيان وفنون البديع كل ذلك هو هو، فأين سكن هذا التغيير وفي أي مكونات الكلام تحرك ؟ السؤال عنه يذكر بسؤال عبد القاهر عن الشيءِ الذي داخل كلام العرب في القرآن فبهر وقهر وأعجز؛ لأن الكلمات هي هي والنحو هو هو؟

وقد شغلني البحثُ عن الذي يتغير في اللغةِ، ولم أجد شيئاً أعوّلُ عليْهِ إلا تغيّرا حدثَ في المعاني الجائلةِ فِي القلوب؛ لأنّ هذه المعاني هي جذر البلاغةِ، وهي التي تنفض نفسها على الصور والأساليب، ولا يمكن أن يُكتفى في هذا بما نقوله في تطور الشعر في عصُور الأدب، ولا بدّ من الوقوف المتأني الذي يدرسُ هذا التطور دراسة متأنية كاشفة يضع اليد فيها على موطن التغيير، ويشرح ذلك ويتتبعُهُ عند كلّ شاعرٍ، وكلّ كاتبٍ، وكلّ ذي بيان.

وقد أشار ابن رشيقٍ إلى هذا التَّطوّر، ونبَّه إلَى ضرورة درسِهِ وشرع في درسِه بضرب مثال فقط. قال ابن رشيق: " إنّ المحدثين من الشعراء خالفوا القدماء في كثيرٍ من طرائق التشبيه، وأنَّ طرائق العرب القدماء في كثير من الشعر قد خولف إلى ما هو أليق بالوقت، وأشكل بأهله " انتهى كلامه (١).

---

(١) العمدة لابن رشيق: مبحث التشبيه

وهذا النصّ فيه أمرانِ: الأوّل مخالفة المحدثين القدماء في طرائق التشبيه، والثاني المخالفة فِي طرائق الشعر، وليس في طرائق التشبيه فحسب، وكلمة (طرائق الشعر) كلمةٌ أوسع من الأساليب والصور، ثُم إنّ هذه المخالفة مخالفة لازمة، وتوشك أن تكون مخالفةً اضطرارية؛ لأنها مخالفة نازعةٌ إلى ما هو أليق بالوقت، وأشكل بأهله، ولا يستطيع شاعرٌ، ولا غير شاعرٍ أن ينازع الزمن، وأن يتشبث بالوقوفِ في مكانه لا يسعى لما هو أليق بالوقت، وأشكل بأهلِه.

وهذا كلامٌ جيد جدًا، ومجملٌ جدًا وبيانه وتفصيله ودراسته في كل صورةٍ وكل أسلوبٍ وعند كل شاعرٍ عمل جِيلٍ كاملٍ.

وأوّل طريق في دراسة هذا التطور وأيسره دراسة تطور التشبيه الذي خالف فيه المُحدَثون القدماء؛ لأنّ دراسة تطوّر التشبيه تعني دراسة مكونات صور التشبيه التي تستمد غالبا من البيئة، وهذا سهلُ قريبٌ، فلو وضعتُ بين يديَّ صور لبيد وصور مسلم وجدت الفرق الواضح الذي لن أجده لو وضعتُ صور لبيدٍ وصور زهيرٍ أو صور مسلمٍ وصور أبي تمامٍ، وقد درسنا صور البيان عند كثيرٍ من الشعراءِ، ولكننا لم نوازن بين صور الشعراء، وهذه الموازنات هي السبيلُ إلى بيان فضل صورةٍ على صُورةٍ.

وإذا كانت الموازنة بين صورِ عصرين وزمانين مختلفين، وكانت كل واحدةٍ منهما أليقَ بوقتها أو أشكل بأهلها دلَّ ذلك دَلالةً ظاهرةً على ما داخلَ الصُّورةَ من تغييرٍ حتّى تكون أليقَ وأشكل، والباحثُ المحتشدُ بيقظةٍ شديدةٍ، والقادر على لمح فروق الأحوال الخفيّةِ يمكنه وهو في هذا الطريق السهل أن يفتح باب الطريق الصعب، وهو تطور الأساليب، وأن يلمح المكامن التي تحدثُ فيها حركة التغيير والتطور للأبنية والتراكيب، وهذا ومثله .

مُنًى إن تكنْ تكن أحسن المُنى *** وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا

وقلت هذا البيت لأنّ الهمم من حولي تخذلني، وخصوصًا أنَّ هذا دربٌ طويلٌ لا يدع شاعرين إلا وازن بينهما، ولا يدع كاتبين إلا وازن بينهما، ولا يدع زمانين إلا وازن بينهما ابتداء من أقدم الشعر وانتهاءً بآخر شعرائنا. لاشك أن مخاطبة شوقي لأبي الهول ليست بعيدةً عن مخاطبة ابن خفاجة للجبل، وأنّ الخطابينِ ليسا بعيدينِ عن مخاطبة الأطلالِ، ولاشكّ أن محمود حسن إسماعيل افترع صورًا وصِيغًا ومجازات لا عهد لشعر العربيةِ بها، وقد عدّه المرحوم محمود شاكر أشعر شعرائنا بعد أبي الطيبِ، وقدَّمه على كلّ من

جاء بعد أبي الطيبِ إلي زماننا(١) وكلّ هذا لا يجوز أن يغيب عن الدرسِ البلاغي؛ لأنه من شواغله، ونصّ ابن رشيق السابق شاملٌ لكل ما قلته.

قلت إن الشاغلَ الأول للدرس البلاغيّ هو بيان الفنون البلاغية والتَّعريف بها وصورها وشواهدها، وأثرها في أداء المعنى، وهذا جيدٌ كلّه، وضروريّ كلّه، ولا يجوز أن نفرط في شيءٍ منه، وإنما تبقى لنا مجالات تتخللها أقلامنا، وذكرتُ من ذلك باب تطور الصُّور وتطور الأساليب، والسكوت عن دراسة هذا التطور قصورٌ وتقصيرٌ، والمسؤول عنه الأوّل هو علم البلاغةِ.

الفنون البلاغية والسمات الشخصية:

وأقول الآن شيئا آخر، وهو أنّ من الأهميةِ بمكانٍ، وأعني به دراسة الفنون البلاغية من حيثُ هي صنعة صانع محدد شاعرا كان أو كاتبا أودع نفسه في صنعته، وكل صانع بارع في أي صنعةٍ من شأنه أن يُفرغ صُبابة نفسه في صنعته حتّى إنها لتكون جزءا منه، ودالةً عليه، وأقدر هذه الصناعات على تقبل خصائص الإنسان المميزة له هي صنعة البيان؛ لأن

---

(١) ينظر جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر جمعها وقرأها وقدم لها الدكتور عادل سليمان جمال –مكتبة الخانجي ج١/ ١٠٣-١٠٤

البيان وصف لهذه النفس، ووصف لأخص خصُوصياتها وأحوالها، واحتاج في بيان هذا إلى وقفة تاريخية قصيرة أبيّنُ فيها أنَّ ما نرى وجوب تناوله في علم البلاغة كان علما قديما لعلماء البلاغة، وكان كبار شعرائنا يرون أن شعرهم لا يمكن أن ينتحله منتحلٌ؛ لأنهم وسموه بوسمهم، ووضعوا عليه خاتمهم، وأنّ هذا الوسم وهذا الخاتم يحميه من أنْ يُغير عليْه مغيرٌ، وقصّة الفرزدقِ مع ذي الرّمة معروفة، وقد اهتدى الفرزدق بطبعه إلى أبيات لجريرٍ كان قد أدخلها في شعر ذي الرمة، وكتب النقد مملوءةٌ بهذا، وانصرفُ إلى ما أريدُ بيانه بعرضٍ موجزٍ لكلام إمامين من أئمة العلم: أحدهما الباقلاني في القرن الرابع الهجري، والثاني العلامة محمود محمد شاكر من علماء زماننا.

ذكر الباقلانيّ كلاما طيبًا فيما نسميه ثقافة دارس الشعر، ثُمَّ ذكر أنَّه من الضَّروريّ أن يكون قادرا على أن يميز صنعة كل شاعرٍ وكل كاتبٍ، فلا يجوز أن يلتبس عليه شعر أبي تمامٍ بشعر مسلمٍ، ووضع الباقلاني كلمة سبك مكان كلمة شعر، وقال: لا يلتبس عليه سبك أبي تمامٍ بسبك مسلم، ولا يلتبس عليه سبك البحتري بسبك ابن الروميّ وهكذا ذكر الشعراء كل الشعراء، والكتاب كل الكتابِ، وكلمة سبك مسلم يصح أن أضع مكانها صنعة مسلم، أو شعر مسلم، أو كلام مسلم. ولم يكتف الباقلاني بهذه

النهاية وهي معرفة الصانع من صنعته بعد اكتمالها، وإنّما ذكر ضرورة معرفة بدايات الكاتب والشاعر، وأنه بدأ تابعًا لفلانٍ، وأَنّه كان يأخذ منه ألفاظه أو معانيه أو حَذوَهُ، وأنّه ظلّ كذلك زمانا حتّى كان رأسًا بنفسِهِ، أو أنّه ما زال يطور حول جنبات من نشأ وهو يأخذُ عنه إلى آخر ما قال، وهو كلام من أرفع ما قيل في هذا الباب.

والمهم الآن هو بيان مراده بالسبك الذي هو مرآة لصاحبه تراه العين فيها، ولا تخطئه، فأبو تمام له سبك دالٌ عليه، وكأنّه وَسْمُهُ وعلامتُهُ أو اسمه أو كنيته، وكذلك سبك مسلم، والفرق بين سبك وسبك كالفرق بين رجل ورجل.

وكلمة السبك غالبًا ما تنصرف إلى بناء اللغة مثل كلمة الرصف والضم والنظم، والتأليف، والنسج إلى آخره، ولو قلت رصف أبي تمام بدل سبكه أو نظمه أو نسجه لم تكن قد ابتعدت عن مراده، ونُزوع هذه الكلمات إلى العمل اللغوي، وأنها في جملتها تعني عمل صاحبِ البيانِ في اللغة من تأليفٍ وتركيبٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ إلى آخره أغمض دلالتها وإلاَ عَلَى من يراجع ويتريثُ ويتدبّر، وأيُّ عمل لغوي لا يمكن أن يكون حاملاً شِيات وخصائص وصفات وأحوال المتكلم تلك الشيات والخصائص والأحوال

التي تميزه عن غيره تميزًا كاملاً كما يتميز رجلٌ عن رجلٍ، وإنما الذي يحمل الشيات والخصائصَ والأحوال التي تميّز هو الحالة السابقة للغة والتي كانت اللغة ثمرة من ثمارها، ونتيجة من نتائجها، وأعني بها الخواطرُ والمعاني والصور والأحوال والهواجس والمشاعر التي قذف بها القلبُ على اللسان، فأدار اللسان أحوال الألفاظ والتراكيب عليها حتّى امتلكتها هذه الصورة اللغوية وأمسكت بها، وبقيت فيها تجول وتمور كما كانت في النفسِ تجول وتمور، وكأنّ السبك هو الصَّيد البارع لهذه الأحوال المتضاربة في النّفس، والذي استطاع أن يقتنصها، ولم تفلت منه سانحة، ولا بارحةٌ ثُم وضعها في هذه الشبكة اللغوية، وأبقاها فيها حية منفعلةً كما كانت في النفس.

فالبحتري حين يقول:

أَتاكَ الرّبيعُ الطَّلْقُ يَختالُ ضَاحِكًا *** مِنَ الحُسْنِ حتَّى كادَ أن يَتكَلَّمَا

ليس سبكه هذا هو هذه اللغة والكلمات التي رصفها وضمها وعلّق بعضها ببعضٍ؛ لأنك لا تراه في هذه اللغة، وإنما تراه في الذي وراءها، والذي قبلها، تراه في انبعاث هذه الخواطر نحو الربيع، وأنّه حيٌّ طلّقُ المحيّا، وأنّه أتاك، وأنه يختالُ منَ الحْسنِ، وأنّ هذا الحسن، وهذه الخيلاءُ قد

طغيا عليْهِ حتّى أوشك أن يخرجَ من جنسِهِ، وأن يدخل في جنسِ الناسِ، وأن يتكلم بما يزهو به من حسْنٍ وخيلاء.

هذه الأحوال والخواطر الروحية هي التي فيها سمت البحتريّ؛ لأنَّها هي ذاته التي وراء لسانه، والتي ليس للسانه الفضل فيها، وإنما فضلُ لِسَانه أنّه عبّر عنها تعبيرا وفِيّا وافيّا، فجاء بالفعل الماضي في " أتاك"، وجعل "الربي" فاعلاً له، ووصف "الربيع" بهذا الوصف الرائع، وقال "الطلق" ثُم جاء بهذه الحال "يختال" ثم استخرج حالاً أخر منها وقال "ضاحكا" ثُمّ كانت الحالُ الأولى فعلاً مضارعا؛ لأنّ الاختيال منه يتجدد ويحدث بتجدد غبطته بنفسه، ثُم كانت الحال الثانية اسما لأن الضحك وَصفٌ ثابت للربيع إلى آخره. لا يكون السبك سبك البحتري الدالّ عليه إلا إذا كان لسان البحتري هو الذي صنعه، فالسبك صنعة البحتري لشعره، والدّال على البحتري في الحقيقةِ ليس هو السبك، وإنما ما دلّ عليه هذا السبك، ويلاحظ أن السبك مصدر سبك، والسّبك يعني صنعة التأليف والتركيب والنسج. والبراعة في هذا هو أنّ هذا السَّبك لم يدع شاردة ولا واردة قامت في نفس الشاعر إلا اقتنصها ووضعها تحت دلالة اللغة.

وأبو تمام حين يقول:

ياصاحبيّ تقصيا نظريكما *** تريا وجوه الأرضِ كيف تصوّرُ
تريا نهارًا مشمسًا قد شابه *** زهر الرياض فكأنما هو مقمرُ
دنيا معاش لِلْورى حتّى إذا *** هلّ الربيع فإنما هي منظرُ
أضحت تصُوغ بطونها لظهورها *** نورًا تكاد له القلوب تنور

سبك أبي تمام الْحقيقيّ الدالّ عليه هو وراء هذا السبك اللغويّ هو الخواطرُ التي تولدت في نفس أبي تمام لما رأى وجوه الأرض كيف تصوّرُ، ونادى صاحبيه بالصوت الممدود، وقال تقصّيا نظريكما، ولم يقل انظرا، سبك أبي تمامٍ الدّالُّ عليْهِ هو رؤية النهار المشمس الذي شابه زهر الربا، فصار ليلاً مقمرًا، هو دنيا المعاشِ يكدح فيها الإنسان الكادح، فإذا جاء الربيع صارت صورة للمتعة، ومنظرًا يذهب كدح الكادحين وأيضًا هو هذا الخيال الممتع الذي رأى فيه بطون الأرض تصوغ لظهورها نورًا يكاد ينور قلوب الذين عليها.

وأنا أجتهدُ في أن أقرب إليك معنى السبك الذي هو بمثابة مرآة مجلوة ترى فِي صفحتها صورة الشاعر، وعليك أنت أن تتمّ ما لم أتمّه، لأن سبك أبي تمامٍ ليس هو المعاني التي تعبر أنت عنها، وإنما سبكه ما أدار لسانه لغته

عليه إدارة متقنةً، فلو زحزحت كلمةً أو حرفًا ضاع هذا السبك، واذكر قولهم:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد، وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلا

واعلم أن الكلام الدَّال علي وسْمُ صَاحبه ورسمه هو الذي في الفؤاد، والذي في اللغة هو دليله، وليس لك سبيلٌ إلى الذي في الفؤاد إلا هذا الدليل الذي في اللسان. نعم لقد أحسن إلينا اللسانُ كل الإحسان لأنه اقتنص هذه الحياة وهذه الحيوية لحظة قامت في النفسِ واحتفظ لها بخصوصيتها، واسكنها اللغة، وجعل اللغة لها بمثابة الفؤاد التي كانت فيه فهي لا تزال في اللغة حية متحركة متضاربة متنازعة ومتقاربة ومتباعدة كما كانت في الفؤاد.

وإذا كان أبو تمام في أطباق الأرض فإنَّ الذي في أطباق الأرض منه هو لحمه ودمه، والذي بين أيدينا هو قلبه وعقله ولسانه، والمرءُ بأصغريه بعقله ولسانه، وما دام هذا باقيا فأبو تمام ما يزالُ باقيا، وهذا ما أفهمه من السبك الدَّال على صاحبه.

وأختم هذا البحث بعرض لكلام الأستاذ محمود شاكر في هذا، ولم يكن يقصد إلى البلاقلاني، ولا إلى السبك الذي هو صنعة الشعر والذي فيه لا

محاله خاتم الشاعر على شعره، وإنما كان يتكلم في الإبانة والاستبانة، والمرادُ بالأولى البيان عما في الضمير، والمراد بالثانية الفهم والتحليل والتَّذوق.

وأهم ما يعنيني ويدخل في موضوعنا هو ما قاله في الأحوال والمعاني الجائلة في النفوس والتي تعبّرُ اللغة عنها؛ لأنَّ هذه الأحوال الجائلة في النفوس هي عند الشيخ شاكر الدالة على صاحب البيان وهي كذلك عند غيره؛ لأنها تحملُ خصائصه المميزة له من بين الآلف المؤلفة من نظرائه، وأن الاستبانة التي هي سبيلنا للتعرف على غوامض دلالات ومعاني الإبانة حين تستقيم لنا على وجهها لا تكتفي بالتعرف على قائل البيان، وإنما تزيد شيئًا هو إحياؤه ورؤية هيأته وملامحه الحسيّة، وكأنه يغدو ويروح يراه القارئ الذي أحسن قراءة شعره.

وقد اختار الشيخ شاكر كلمة التذوق مكان كلمة الاستبانة، ورآها أبين وأصرح.

أمَّا المعاني الجائلة في النفوس التي فيها وَسْمُ صاحبها ورسمه فهي عند الشيخ بحرٌ لجيٌّ من الغرائز والشيم ومن الحبّ والبغض والوفاءِ والغدر والمروءةِ والخساسة والصدق والكذب والشك واليقين والعفة والدناءة والمودة والمداهنة والاستقامة والمراوغة والغضب والرضى، والبرّ والفجور والرحمة والقسوة إلى آخر ما قال من كلامٍ متسعٍ جدًا ثُمَّ قال: وعمل الإبانة

هو إنشاءُ الأحرف والكلمات والجمل وتركيبها تركيبًا دالاً على المعاني الجائلةِ فِي الضمير المستور على الهيئات الظاهرة التي يشفّ عنها هذا البناء الذي تكمن فيه ثم تخرج جميعها حاملة آثارًا مُفصحةً عن صاحبها المتميّز عن إخوانه من البشر بخصائصه الدّالة عليهِ وعلى تفردهِ، وهذه الآثار حاضرةٌ في الكلام المركب حضُورا مستكنا في غضونه أو عالقا بأحرفه وتركيبه أو ناشبا فِي ثنايا الكلام، وفي أغواره القريبة والبعيدة " انتهى كلامه(١).

وفي هذا النصّ أشياء أولها الكلام في غزارة المعاني الجائلة في النفوس، وان كلمة المعاني هذه كلمةٌ عامّة جدا، ووراءها ما لا حصر له من الغرائز والهواجس والشّيم والخلالِ والمشاعر من حبٍّ وبغضٍ وخيرٍ وشرٍّ... إلى آخره وهذا الذي ذكره الشيخ قليلٌ جدًا، وكل ذلك جائلٌ ويجولُ فِي كلِّ نفسٍ، وهذه الأحوال الجائشة فِي الصدور هي جذر البلاغة، وجذر الشعر وجذر البيان، ولو عرفت البلاغة بقولك هي المعاني التي تجيشُ بها الصدور لكنت على حقٍّ لأن صحار العبدي لما سأله معاوية، وقال له ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال: هي معانٍ تجيشُ بها صدورنا، فتقذفها على ألسنتنا.

---

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمع عادل سليمان جمال، ط: الخانجي –القاهرة ص ١١٦٩- ١١٧٠

وجذر البلاغة هو الحامل لشيات وسمات وخصائص قائله، وهو الدال عليه دلالة تميزه عن كلّ من لهم لسان، وإن تشابهت ألسنتهم كتشابه البحتريّ وابن الروميّ وأبي تمام ومسلم.

ويلِي هذا الحديث عن المعانِي الجائلة في القلوب الحديثُ عن عمل الإبانة الذي هو صناعة الشعر وصناعة البيان والذي هو السبك والرصف، وعمل الإبانة هذا كما وصفه الأستاذ شاكر هو إِنشاء الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب، وظنّي أن استعمال الأستاذ لكلمة "الإنشاء" في قوله: "وعمل الإبانة هو إنشاء الأحرف والكلماتِ " فيه إشارةٌ إلى سداد الاختيار حتى كأنّ الأحرف والكلمات والجمل التي يستعملها إنّما ينشِئها إنشاءً، وكأنه يستخدم غضارتها الأولى، وكأنّها تنشأُ وتولدُ تحت لسانِه، وأُذَكّرُ بأنَّ عمل الإبانةِ هو ما سماه الباقلانيّ "السبك"، وسماه عبد القاهر "النظم" وقد سكت الباقلاني عن المعاني الجائلة التي كان السبك بيانا لها، وأوجز عبدُ القاهر هذه المعاني الجائلة بكلمة مقاصد المتكلمين، وإذا لم نفتح معناها على البحر اللجّيِّ الذي شرحه شاكر أضلتنا عن البلاغة ذاتها، وقد سمّى عبد القاهر إنشاء الأحرف والكلمات والجمل توخّي معاني النحو، وهي كلمة جيدةٌ جدًا، وادخل في بيان صنعة الشعر من كلمة الأستاذ شاكر.

تكلمنا عن المعاني الجائلة في النفوسِ، وهي أول الطريق، وعن إبانة المتكلّم عن هذه المعاني الجائلة، وأنها لابدّ أن تكون إبانة مستوعبة ومتشربة ومحيطة بكلّ المعانِي الجائلة، وهذه هي الخطوة الأخيرةُ للمتكلّم، ويبقَى المهمّ وهو ممارسة الدارس للأحرف والجمل والكلمات التي أنشأها المبينُ عن نفسِه، لأنّ هذه الممارسةُ، وهذه المدارسة هي التي ستخترقُ هذا البناء اللغوي لتنفذ إلى هذا البحر اللجيّ الذي تحت هذا البناء اللغويّ، وستتعرف على صاحب البيان؛ لأنّ صورته هناك في هذا البحر من الغرائز والشيم والمعاني والأحوال، ولا يمكن أن تكون هذه الممارسةُ أو المدراسةُ لهذا الشعر واصلةً بنا إلى ما وراء البناءِ اللغويّ إلاّ إذا كانت دراسة قائمةً على معرفةِ طرائق العربية في الإبانة عن المعاني والأستاذ شاكر يُسمّي هذه الدّراسة التذوق يعني تأمل الشعر وتكراره وتدبره على أصل العلم بدلالات الأبنية اللغوية، وليس التذوق الفارغ من هذا العلم، ويلاحظ أنَّ الشعراء الذين نمارسُ التَّذوّق على شعرهم كانوا يعرفون طرائق العربية في الإبانة، فامرؤ القيس يعرفُ الفرق بين تقديم اللفظ وتأخيره، ويعرف الفرق بين تعريفه وتنكيره ويعرف الفرق بين "الواو" و"الفاء" ولو كان يجهلُ هذا لوضع التعريف موضع التنكير، ووضع"الفاء" موضع "الواو" ولاختلّ شعره، ولهذا كان التذوّق المؤسس على معرفة طرائق العربية التي

كان يدركها الشعراء بمثابة التتبع الهادي لمكامن المعاني التي أسكنها أصحاب البيان في أحوال حروفهم وكلماتهم وجملهم التي أبانوا بها عن ذوات نفوسِهم.

قال الأستاذ – رحمه الله – في بيان عمل الدارس أو المتذوق أو الناظر أو المتلقّي أو السامع أو من شئت من تسميات، والذين منهم أنا وأنت " كيف يمكن أن يقع التمييز بين شعر امرئ القيس وشعر زهير وشعر أبي تمام والبحتريّ ومن شئت من الشعراء كيف كان ممكنا ذلك التمييز في مدة حياتهم، وكيف يكون ممكنا بعد موتهم إلا بهذا العمل الدائب في ممارسة الكلمات واستنباط الخفيّ من أسرارها، وتذوق أساليبها وتسمع الرّكز الخفيّ في جرسها ونبرها، ثم تولّج الحسّ إلى كنه كلّ حرف في بنائها وتركيبها بِلمحٍ متيقظٍ بصيرٍ حتّى تنشأ في النفسِ صُورة واضحةٌ لكلّ منهم يبين بها من سواه، وحتّى يتردد في السّمعِ صَدى يميز صوتَ أحدهم من صوتِ صاحبِه " انتهى ما أريده.

والقول بأنّه ينشأ في النفسِ صورة واضحةٌ لكل منهم يبين بها من سِواه سبق أن بيّناه، وهنا إضافةٌ أخرى هي "حتّى يتردّد فِي السمع صدى متميّز يعرف به صوت أحدهم من صوت صاحبه "يعني أسمع صوت النابغة

وصوت زهير، وصوت من شئت من الشعراء، وهذه زيادةٌ في التعرف والاقتراب من صاحب الشعر، وان زيادة الاقتراب من الشعر تعني لا محالة زيادة الاقتراب من الشاعر، والمهمّ وصفه للعمل الذي تخترق به الشعر لتصل إلى الشاعر، وتقترب منه، وتألفه وتألف صوته، وهذا العمل هو العمل الدائب في ممارسة الكلمات واستنباط الخفيّ من أسرارها وتذوق أساليبها، وتسمع الرّكز الخفيّ في جرسِها ونبرها.

ولا أعرفُ العمل الدائب في ممارسة الكلمات إلا أن يكون تدبرا وتغلغلاً ونظرا دائما في دلالات الكلمات من حيثُ أصولها الاشتقاقية ومن حيثُ أحوالها من تعريف وتنكير، وتقديم وتأخير وحذف وذكر وما أجمله المتأخرون إجمالاً بارعا في قولهم: " أحوال اللفظ العربيّ التي بها يطابق مقتضى الحال "، وإن كنت تعرفُ أيها القارئُ عملاً دائبًا في الكلمات غير هذا فدلنا عليه، وأكادُ أقطعُ بأنَّ هذا هو مرادُ الشيخ – رحمه الله – لأنه هو الذي مارسه في"نمط صعب ونمط مخيف"، ولأنه هو منهج عبد القاهر، وكان الشيخ شديد الحفاوة بعبد القاهر، وكان ممّا كتبه عنه أنّه لم يضع أصول بلاغة لسان العرب فحسب، وإنّما وضع أصول بلاغة لسان البشر.

أمَّا تسمع الرّكز الخفيّ في الجرس والنبر فقد كان – رحمه الله – شديد الحفاوة بمعاني أصوات الحروف، ويراها سرا من أسرار العربية، وعِلْما من علومها يجبُ أن نتقنه، وأن تتقنه أجيالنا، وكتب في ذلك جملة مقالاتٍ في "مجلة المقتطف" منذ أكثر من سبعين سنة، وهذه المقالات منشورة في كتاب جمهرة مقالاته، وهذه أعني الجمهرة أفضل ما نشر في هذه السنوات الأخيرة، ولم اعرف من علمائنا المعاصرين منْ لَهُ حِسٌّ قادِرٌ على استنطاق الرنين في اللغة ينازع به رجلين أحدهما محمود شاكر، والثاني الدكتور عبد الطيب في كتابه "المرشد"، وربما كانت قدرته الفائقة على تسمع الرّكز الخفيّ هي التي أغرته بأن يضيف القول بأن القراءة الجيدة لشعر الشاعر لا تجعله دالاً عليه فقط، وإنما تجعلنا ندرك صوته المتميز عن أصوات غيرِه، ولم يكتف – رحمه الله – بالقول بأن القراءة الجيدة تجعلنا نسمع صوت الشاعر، وإنما أضاف أنها تجعلنا أيضًا نرى صاحب البيان وهو يروح ويغدو في جميع أحواله على ضروب من الهيئة تعرفها النفس معرفة التبين والتميز، وكلّ بحثٍ أدبيّ أو تاريخيّ سوف يكون عندئذٍ استحياء لأشباحٍ مضت من رسوم كلمات بقيت، وسرُّ هذا كامنٌ في التذوق، وفي تذوق الكلمات خاصّة" .

ومع أنني أقطع بأنّ هذا التّذوق المؤسس على معرفة طرائق العربية في الإبانة هو جوهر علم البلاغة، وأنّ هذا العلم هو المرشّح لتحقيق هذا الهدف الشامخ النبيل، فإنني لا أستشرفُ الآن إلى الوصول إلى هذه الغاية، وإنما أقول يجبُ أن نبدأ بوضع هذا العلم على هذا الطريق الذي هو طريقه، والأمل معقودٌ على جهود النابهين من طلابه عساهم يقطعون من هذا الطريق مسافات، ثُمَّ يُسلمونه لمن بعدهم، وعسى أن يكون منهم من يقطع مسافةً أطول، والمهمّ أن يدخل علم البلاغةِ من باب دراسة الفنون البلاغية من حيثُ هي واقعةٌ في كلّ بيان إلى دراسة الفنون البلاغية الخاصّة بصنعة كل ذي بيان، وأن يستطيع هذا العام بجهود علمائه أن يُجدد بلمحٍ متيقظٍ متَلقّطٍ بصير كما يقول الأستاذ محمود شاكر سَمت أسلوب الجاحظ وصوره وسمت أسلوب الصابئ وصوره، وسمت ابن المقفع وسمت عبد الحميد الكاتب، وسمت الفرزدق والأخطل إلى آخره، وهذا السمت المتفرّد ليس بعيدًا عن الأسرار والدقائقِ واللطائف التي مستقاها العقلُ، وطريق العلم بها الرّوية والفكر، وأَنّ هذا اليقظ المتلقِّط البصير هو الذي وصفه عبد القاهر بأنه كشف له عن اللطائف والأسرار والدقائق، وأنّه رفعت له الحجبُ وأن عينه ترى ما لا تراه العيون، وأنّ أذنه تسمع ما لا تسمعُه الآذانُ، وهذا الصّنفُ الذي كرّر عبدُ القاهر وصفَهُ حتّى إنّه شبهه بمن

تفتح له أبوابُ المْلوك لوجهه وذكر أنه من النفر البيض الذين اعتزُّوا يعني انتسبوا وذكروا آباءهم الصّيد، وهاب رجالٌ حلقة الباب تقدموا هم وطرقوا الأبواب التي يهابها الناسُ، والباب الذي اقترَحتُهُ من هذه الأبواب التي يتهيّبها الناسُ.

ونرجو الله ﷾ أن يُهيّءَ لكل علمٍ من علوم هذه الأمة كوكبة من هؤلاء الرجال يتقدمون الباحثين، ويفتحون الأبواب ويشاهدون ما وراءها من خصبٍ وثراءٍ، وأن يكونوا بمثابة السّحاب الذي يسوقه ربنا ﷾ إلى الأرضِ الجرز فتخرج زرعًا تحيا بِه الْحياةُ .

خاتمة البحث وتوصياته

خطأ تغييب نشأة العلم عن طلاب العلم.

الحالة التي عليها الدراسة البلاغية ليست البلاغة مسؤولة عنها، وإنما المسؤول عنها هم أساتذتها .

لابد من مراجعة الأزمنة الخضراء في تاريخ العلم لتكون منارة أمام الباحثين.

لابدّ أن ندرس مع العلم طرائق استثماره والانتفاع به.

تحصيل مسائل البلاغة هو أول الطريق وليس آخره.

لابدّ أن نقنع طلابنا بالعلم حتّى يظلُّوا متشبثين بعلومنا ومعتزين بها؛ لأنها تاريخهم وذات نفوسهم .

فشلنا في إقناع أجيالنا بعلومنا خطيئة لن يغفرها لنا التاريخ

لابدّ أن تكون للبلاغة عينٌ باحثة عن حقل جديد تدخله وتداخله حتى لا نظلّ ندور في دائرة واحدة.

والله الموفق

المصادر والمراجع

١) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف – القاهرة.

٢) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد الخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – ط: دار المعارف بمصر.

٣) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع، تحقيق حفني شرف، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

٤) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمع عادل سليمان جمال، ط: الخانجي -القاهرة.

٥) دلائل الإعجاز، - عبد القاهر الجرجاني قراءة محمود شاكر – ط: المدني – نشر الخانجي – القاهرة.

٦) المثل السائر، لابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت.